مصطفى الحاج

# بعض الحركات الفكرية في الإسلام

منشورات
دار القلم
للطباعة والنشر

obeikandl.com

للطباعة والنشر والإعلان

صاحبها ومديرها المسؤول : خليل محمد ميمنه

الإدارة : بناية العسيلي - المدخل الرئيسي - بيروت

تلفون : عسيلي ٣٨

ص . ب ٢٢٩٥

obeikandl.com

# اسس الاسلام الاقتصادية

●

ان القول بان الاسلام فكرة دينية محضة وان ظهوره وتغلبه على وثنية العرب وانتشاره السريع بين اكثر أمم الشرق وفتوحات الخلفاء الراشدين وبني امية الواسعة ترجع الى الحماسة الدينيـــة أو التعصب الديني يعد اليوم بعيداً عما اثبتته الابحاث التاريخية الاقتصادية.

ان الاسلام حركة دينية وسياسية واقتصادية ومن فضل مؤسس الدين الاسلامي ومظاهر عبقريته انه ادرك مصدر الحركة الاقتصادية والاجتماعيـــة التي ظهرت في أيامه في مكة عاصمة الحجاز وعرف كيف يستفيد منها ويسخرها لأغراضه السامية دينيـة كانت أو اجتماعية .

يظن بعض المؤرخين ان الاسلام هو آخر مهاجرة هاجرها العرب وان الدافع اليها هو كما كان يدفع سابقاً الى مثلها في جزيرة العرب اي جفاف ارضهم المستمر وما يتبع ذلك من الضيق والفقر ويقول المستشرق الهولاندي الشهير M. de Goye ان الداعي الى ظهور الحركة الاسلاميـة هو الدين الا ان القبائل العربية وسكان مكة والمدينة اقبلوا عليه ودخلوا فيه لأسباب غير دينية ومعنى ذلك ان صاحب الدين الاسلامي استعمل الدين كغيره من أصحاب الاديان

قبله واسطة للوصول الى اغراض سامية على كل لا ريب في ان الحركة الاسلامية بلغت عصرها ووليدة ذلك الوسط الاجتماعي الذي تكون في مكة في أواخر الجيل السادس بعد المسيح . فاذا أردنا ان نقف على منشأ تلك الحركة التي أدت الى ظهور الاسلام لا بد لنا من معرفة ذلك الوسط وتلك الاسس الاجتماعية التي قامت عليها حياة مكة وما يجاورها من بلاد الحجاز .

معلوم ان الاسلام ظهر في مكة وما كان ليظهر الا فيها لأن الشروط الضرورية لظهوره لم تكن يومئذ متوافرة في غير مدينة من مدن العرب وهذه الشروط كثيرة نقتصر منها على ما يأتي :

كانت مكة قبل الجيل الخامس من التاريخ المسيحي بلدة صغيرة أو بالاحرى محطة للقوافل التي كانت تمر بها وهي راجعة من جنوب الجزيرة تحمل بضائع الهند واليمن الى سوريا وفلسطين ومصر فأصبحت في أواخر الجيل السادس مدينة تجارية غنية تمد بما كان يأتيها من البضائع المحلية والاجنبية اكثر سكان الحجاز واسواقه التي كانت تؤمها العرب من جميع أطراف الجزيرة ومن سوريا والعراق وسائر البلاد العربية .

اما اسباب هذا التقدم فكان متوقفاً في الدرجة الاولى على مركزها الجغرافي ووجود الماء فيها ثم على انها أصبحت مركزاً دينياً سعى لقسم كبير من البلاد العربية تحج اليه كل سنة الالوف والوف الألوف من جميع أطراف العالم العربي لزيارة الكعبة المكرمة واقامة الشعائر الدينية فيها مدة ثلاثة اشهر أو للمتاجرة في أسواق الحجاز وعلى الأخص في سوق عكاظ التي كانت تقام كل

سنة على مقربة من مكة وكان يحضرهـــا ليس فقط تجار العرب وشعراؤهم بل بعض تجار العجم وسوريا والحبشة لا اظنني ابالغ اذا قلت ان اكبر دافع الى زيارة مكة كانت هذه السوق وما كان يجري فيهـــا من سباق لخيل ومناظرة الشعراء الى غير ذلك من وسائل اللهو والطرب لا تلك الشعائر الدينية القديمة فكان سكان مكة او بالأحرى طبقة قليلة منهم وهم سدنة الكعبة واهل الندوة المعروفون بالملأ يستغلون الموسم الديني وشعائره وسوق عكاظ وغيرها من الاسواق كسوق المجنة وذي المجاز ومنى ، يستثمرونها لمنفعتهم الشخصية ويستمدون منهـــا نفوذهم بين العرب وقوتهم السياسية والمعنوية المرتكزة على قوتهم المالية . عرف سكان مكة مصدر ثروتهم وقوتهم في الحجاز فأكبوا على التجارة حتى ألهتهم عن غيرها من الاشغال فأصبحت مكة مدينة تجارية محضة لا يفكر اهلهـــا الا في التجارة ولا همهم الا جمع المال واستثماره بجميع الوسائل المحللة وغير المحللة وما عليك الا ان تقرأ القرآن لتقف على حركة التجارة في مكة ودرجة انهماك سكانها بهـــا وبسائر الاعمال المالية ولتدرك ما لهذه السوق الدائمة من التأثير على النبي الكريم وعباراته وفحوى كلامه في اول دعوته بل في جميع ادوار حياته فلو امعنت النظر في آيات القرآن لرأيت ان عدد الرجال الذين لم تكن تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقامة الصلوة وايتاء الزكوة كان قليلاً جـــداً في مكة وان شغف الناس بالتجارة والتجول في اسواق مكة للوقوف على اسعار البضائع وقيمة النقود كان عظيماً جداً .

لا نعجب من اشتغال سكان مكة بالتجارة وحدها واستثمار ما كان عندهم من المال بشتى الطرق لأن مدينتهم وهي التي وصفها القرآن بأنها « واد غير ذي زرع : ابراهيم ٣٧ » لم تكن تصلح لا للزراعة ولا للصناعة فكان اهلها مضطرين ان يعيشوا من محصولات وواردات بلاد اخرى وكانت حياتهم وسعادتهم متوقفتين على التجارة او المضاربة بالأموال وما المضاربة في نظرهم الا نوع من التجارة ولولا التجارة والمضاربة لاضطروا أن يهجروا بلادهم التي ألفوها وأحبوها على شظف العيش فيها فكانت حالتهم في ذلك العصر كحالة اخوانهم اليوم يعيشون على الحجاج ومن الحجاج ومن القبائل المجاورة لهم التي كانت ولا تزال الى اليوم تستقرض منهم المال (مع العلم ان ارباح البترول في الوقت الحاضر يعود على كبار الاقطاعيين وبينهم العائلة المالكة ومن لف حولها .)

ولما كان عدد الحجاج ورواد أسواق الحجاز كثيراً وكان من واجبات ومصلحة سكان مكة ان يهتموا بهم ويقدموا لهم كل ما كانوا يحتاجون اليه من طعام وشراب وبضائع كانوا والحالة هذه مضطرين ان يحتاطوا للأمر سلفاً ويهيئوا بضاعتهم قبل أشهر الموسم وافتتاح سوق عكاظ فكان لهم في السنة رحلتان ، رحلة الصيف ورحلة الشتاء الى سوريا وفلسطين وجنوب بلاد العرب ليبتاعوا هناك ما كانوا يحتاجون اليه من البضائع وليبيعوا بعض محصولات بلادهم ، كالتمر والجلد والزبيب .

والذي يظهر من بعض الأحاديث واقوال المؤرخين ان رؤوس الاموال التي كانت في ايدي تجار مكة واصحاب القوافل كانت

تبلغ احياناً مئات الالوف وانها لم تكن تختص اشخاصاً معلومة ، بل كانت تجمع من اشخاص عديدة من سكان مكة والطائف على شروط معلومة يستفيد منهـــا اصحاب القوافل وغيرهم ممن كانوا يؤمنونهم على اموالهم ، فلا عجب والحالة هذه اذا رأينا اكثر سكان مكة يهتمون بالقوافل السنوية ويسألون عنها الرائح والغادي ويختارون لمرافقتها الى الحدود احسن الخفراء واشهر رجالهم في الخبرة والتجارة والحنكة السياسية وبعد النظر كأبي سفيان وغيره من الملأ المكي فكانوا كلما زاد رأس مالهم الذي كانوا ينفقونه على قوافلهم ازداد قلقهم عليها وصعب مهمة روادها والمسؤلين عنها لان طرق القوافل لم تكن مأمونة من الخطر بل كانت دائماً معرضة لغزو القبائل وسطو شذاذ الطرق وقطاعهـــا الذين كانوا يعيشون في الصحراء فساداً ويعيشون من السلب والنهب ، فكان يصعب على اصحاب القوافل ان يبلغوا بضاعتهم واموالهم حدود سوريا وفلسطين من دون ان يعرض لهم في طريقهم عارض او ينشأ لهم خطر في كل قافلة كانت تبلغ مرامها ولا كل مكي كان يقوم على جمعها وقيادتها فكانت القيادة محصورة في اشخاص معلومة عرفوا بثبات الجأش ومضاء العزيمة وحسن السياسة والتوفيق بين مصالح اغنياء مكة وجشع رؤساء القبائل التي كانت تمر القوافل باراضيها ويستأجرها اصحابها لخفارتها ، فكانوا يستميلونهم تارة بالمال وتارة بالمصاهرة وتارة بالارهاب والقوة المسلحة ، ولهذا كان اصحاب القوافل واغنياء مكة مضطرين الى استخـــدام جماعات كثيرة من الناس لخفارة بضائعهم والمحافظة عليها في الطريق ، وكان اكثر هؤلاء الخفراء

من الاحباش وعبيد افريقيا ، وكان عددهم يزداد سنة عن سنة حتى تألف منهم جيش منظم كان يقوم بنفقاته تجار مكة ، مما يدل على ان تجارتهم كانت رابحة وان ارباحهم كانت عظيمة والا لما استطاعوا ان يقوموا بهذه النفقات الباهظة ويجمعوا فوق ذلك ثروة كبيرة كما هو معروف .

اما ان تجارتهم رابحة فدليلنا على ذلك ان بعضهم كان يملك مئات الالوف بل الملايين ، وان مصارفهم كانت ملأى بالدنانير والدراهم مما يستنتج منه ان تجار مكة كانوا يصدرون من البضائع اكثر مما كانوا يستوردون ، وليس في ذلك شيء من الغرابة فقد عرف من بعض شعوب وقبائل روسيا وآسيا الوسطى في الاجيال الغابرة انها كانت تبيع اكثر مما كانت تشتري من البضائع لانها لم تكن تحتاج وهي على تلك الحالة من العمران التي تشبه حالة قبائل العرب في القرن السادس الا الى الضروريات ، وفي ذلك بين كاف لعثورهم على كميات كبيرة من النقود العربية في اواسط روسيا وشمالها من القبائل الهمجية التي كانت تصدر الى الخلافة العربية محصولات بلادها كالفرو والشهد وانواع الخشب باثمان غالية وتشتري منها ما تحتاج اليه في معيشتها البسيطة .

فالمال اذن كان موفوراً في مكة والطائف ، وكان اصحابه كثيرين ولنا على ذلك ادلة عديدة في القرآن وفي الشعر الجاهلي وسيرة الرسول ، واعظم دليل على ذلك في نظري وهو وجود فئة كبيرة من المرابين واصحاب المصارف في اوائل الجيل السابع واضطرارهم نظراً لتشبع الاسواق التجارية بالمال والى تعاطي الربا

بل انصراف اكثر تجار مكة اليه حتى صار مصدراً ثانياً لثروتهم واعلاء كلمتهم في البلاد واحد اسباب سخط الناس عليهم لان الربا في مكة كان فاحشاً جداً ، اي كما هو اليوم في كثير من البلاد ، ولولا ذلك لما حمل صاحب القرآن الكريم حملاته المعروفة على المرابين والربا بل لما منع الربا ولعن المرابين على كل صفحة من صفحات سوره المكية .

وان من يتصفح القرآن بامعان ويبحث عما وردفيه من الآيات المتعلقة بالرباء والمرابين لايستطيع ان ينكر ان عدد المرابين في مكة كان كبيراً جداً في عصر النبي وان ضررهم على الهيئة الاجتماعية لم يكن باقل من ذلك ، فالويل ثم الويل لمن كان يسقط في شباكهم وياتعس من كانت تضطره ظروف الحياة الى الالتجاء اليهم ، لان هذه الطبقة من الناس لم يكن همها من الدنيا الا جمع المال فلم تكن تفقه للرحمة معنى ولا كانت ترى فرقاً بين التجارة والرباء الفاحش وذلك لان التاجر والمرابي كانا في ذلك الوقت يعاملان المشتري او المستدين معاملة واحدة ترمي الى غرض واحد وهو الاثراء وكانوا يضاربون بالدراهم والدنانير والتبر والنقود الاجنبية .

كانت نتيجة اعمال هذه الفئة الظالمة خراب المدينين واستعبادهم ثم استثمار اتعابهم بشتى الطرق التي كانت توحيها اليهم ضمائرهم الفاسدة وسنن ذلك العصر وذلك الوسط المنحط فكان من جملة هذه الطرق ان الدائن كان يحمل امرأة المستدين او بنته على البغاء لايفاء ما على ابيها او بعلها من الدين الذي لم يكن تقريباً سبيل الى ايفائه لانه كاد يزداد كل يوم بل كل ساعة بما كان يضاف اليه من الربا ولهذا

لم يكن وقتئذ امل في التخلص من اولئك الظلمة بالطرق السلمية الا في ماندر . اما اكثر المدينين فانهم كانوا مضطرين اما الى الهرب الى الصحراء والالتحاق بطبقة المتشردين وقطاع الطرق واما ان يدخلوا في طبقة الارقاء ويقيموا فيها الى ما شاء الله ،وهذا كان حظ الاكثرية كما يستفاد من آيات القرآن والوسائل العديدة التي كان يعمد اليها (محمد. ص. ع) بعد الهجرة اما تحرير الارقاء واما تحسين حالهم كل ذلك ادى الى وجود طبقتين غير متناسبتين العدد لان طبقة المثرين واصحاب البنوك وسدنة الكعبة واصحاب السلطة او الملأ والاعزاء (المنافقون ) كما يقول القرآن .

وطبقة الصعاليك والفقراء والأرقاء او الأراذل (الشعراء ١١١) وان الذي يظهر من مطالعة القرآن وامعان النظر في المفردات المستعملة هناك الدلالة على طبقة الصعاليك هو ان عدد اصحاب هذه الطبقة في مكة كان عظيما جداً بالقياس الى عدد اصحاب الثروة فيها وان العلاقات بين هاتين الطبقتين لم تكن لتختلف كثيراً عما هي عليه اليوم بين المتمولين والصعاليك او عما كانت عليه حين ظهر الاسلام في روما والقسطنطينية والمدائن وهذه العلاقات معروفة اليوم عند الجميع فلا حاجة الى الكلام عنها بالتفصيل ويكفينا لتصوير حالتهم على الاطلاق ان نقول انهم كانوا لا يملكون شيئاً حتى انفسهم لان حق التشريع كان محصوراً في ايدي الطبقة العليا فكان اصحابها يسنون من الشرائع ما كان يوفق مصلحتهم ولما لم يكن لاصحاب هذه الطبقة زاجر من انفسهم ولا رادع من ضمائرهم يردعهم عن استثمار الصعاليك وامتهانهم ويوقفهم عند حد معلوم من القساوة

كانت حياة الصعاليك بينهم عرضـــة دائمة للاخطار وسلسلة يأس وعذاب فلا قانون يجمعهم ولا شريعة ترق لحالهم وتحاول ان تنتشلهم من هـــاوية الموت الاجتماعي والرق الأبدي فكانوا يعيشون من شعاب البلدة واطرافها البعيدة وفي بيوت حقـــيرة قذرة وجوع مستمر ، بينما كان الذين أثروا من اتعابهم يقيمون في وسط المدينة في قصورهم الفخمة بالقرب من الكعبة والنـــادي او دار الندوة مصدري ثروتهم وسلطتهم . هذه صورة مصغرة لحالة صعاليك مكة في اوائل الجيل السابع صورة ملؤها اليأس والسخط صورة كانت ولا بد تدعو احياناً الى التذمر والاحتجاج واحياناً الى الثورة ولا سيما في اوقات الازمات التجارية او الزراعية يوم كانت تسوء حالة الفاعل والزارع والرقيق لقلة الاشغال وضغط اصحاب الاموال عليهم . فهل من عجب والحالة هـذه اذا خرج صعاليك مكة على ساداتهم وحاولوا بما لديهم من الوسائل ان يحسنوا احوالهم المادية ؟ وهل نعجب اذا سمعنا احياناً شعراء البادية وما شعراء البـادية في ذلك الوقت الا لسان حال الامة والمعبرون عن عواطف الفئـــة الكبرى منها . ينحون باللائمة على اصحاب الثروة ويقبحون اعمال الملأ المكي ويدعون الى الرفق بالفقـــير ويذكرونه بواجبه نحو الأرقاء والمظلومين : قال بشر بن المغيرة يحض الاغنيـــاء على مساعدة الفقير :

وكم قـــد نال شبعاً لبطنه وشبع الغني لؤم اذا جاع صاحبه

الا انه لم يكن لهذه الصرخات القلبية وهذه الاحتجاجات الضعيفة تأثير يذكر لانهـا لم تكن موجهة الى استئصال المرض الذي كان

ينخر وقتئذ قوام الهيئة الاجتماعية في مكة ويولد ذلك التفاوت بين طبقات الامة الذي تكلمنا عنه قبل ذلك . اذن لم يكن بد لمقاومة هـذه الامراض من دواء انجع ووسائل اقوى ورجال اشد ثباتاً وأمضى عزيمة من شعراء البادية وكان لا بد ايضاً من انتظار الوقت الموافق لاعلان الحرب على الملأ المـكي وطبقة المرابين والوقت متى حان يتولى هو نفسه ايجاد رجل العصر وبطله .

# ظهور محمد ( ص. ع. )

لو ألقينا نظرة الى الوراء وتأملنا ملياً في عمل النبي الاجتماعي بل الثورة الاجتماعية التي احدثها بين ابناء وطنه كانت اهم واعظم واعمق ثورة دعا اليها من العرب قبل النبي وبعده .

نحن لا نحب ان ندخل هنا في البحث عن صفات المصلح العربي الشخصية التي دفعته الى اقتحام هذه العقبة الكؤود واضطرته الى سلوك ذلك الطريق الوعر الخطر الذي كان يسير بصاحبه عادة الى الجلجلة بل يكفينا ان نعرف ان النظام الاجتماعي في مكة أعد في اواخر العصر السادس محلاً اجتماعياً لشخص توافرت فيه القوى والصفات اللازمة كسرعة التأثر ولطف الطبيعة وبعد النظر وطيب القلب ومعرفة طبيعة الناس وحسن السياسة والاستعداد التام لتضحية مصالحه الشخصية بل روحه العزيزة في سبيل المصلحة العامة وتحقيق مبادئه السامية التي توصل اليها بجهده واصبحت جزءاً من نفسه .

اسم هذا الرجل الذي توافرت فيه هذه الشروط التي قلما تجتمع في شخص واحد هو محمد بن عبد الله انتدب هذا الرجل الكريم ليكون مصلحاً لبلاده او كما يسميه القرآن الكريم منذراً وبشيراً

لقومه فلبي راضياً مسروراً وانتدابه لم يكن عن صدفة بل كان عن معرفة سابقة لقواه الروحية التي ذكرنا قسماً منها ولاستعداده لمثل هذه الدعوة .

انما أعني بهذه العبارة الاخيرة معرفة المندوب للوسط الاجتماعي الذي ولد وعاش فيه قبل الدعوة بنحو عشرين سنة كان فيها يتيماً فقيراً يتضور جوعا ويقتات احياناً وهو يرعى غنم غيره ثم صار مستخدماً او وكيلاً في محل تجاري يخص ارملة عاقلة تكاد تكون امه فأصبح بحكم وظيفته ان يسافر كل سنة ويخالط الناس ويطلع على احوالهم ويسمع شكواهم ويفكر في اسباب شقاء الطبقة الكبرى منهم والطرق التي يمكن ان تخفف من وطأة الفقر والظلم عليهم فكانت هذه الرحلات وهذا الاختلاط بالناس والاصغاء الى احاديثهم مدرسة عملية له اعدته لان يكون ذلك العامل الاجتماعي والمصلح الكبير الذي نعرفه ويعرفه التاريخ ولا شك ان النبي العربي كان اعرف الناس من ابناء بلدته وقومه بأمراض البيئة الاجتماعية واقدرهم على مقاومتها فقد عركه الزمن ، وعرك الزمن سنين قضاها في المراقبة والتفكير ثم دخل مدرسة الحيرة واقام فيها زمناً طويلا فاطلعته على اسرارها وكشفت له عن غثها وسمينها فادرك معنى الحياة واسباب السعادة والشقاء فيها فاحب ان يطلع على ذلك السر ابناء بلدته ثم ابناء وطنه ثم العالم كله فنهض الى عمله ولا سلاح له الا الاخلاص في النية والاتكال المطلق على الله الذي اوجده يتيما فآوى ووجده ضالاً فهدى ووجده عاقلا فاغنى (الضحى) فأية مدرسة اكثر فائدة من ان يكون الانسان يتيما فقيراً محتقراً

فيصبح بجده وامانته وحسن سيرته غنياً محبوباً محترماً ويفقه معنى الحياة ويدرك مصادر الامراض الاجتماعية ثم يفكر في ايجاد علاج شاف لها وفي مقارمتها ، على قدر ما تسمح له ذلك قواه العقلية والادبية والوسط الذي يريد اصلاحه والظروف السياسية والعمرانية في ذلك الوقت لا شك ان الفقر وما يتبعه من الحالات النفسية كان اكبر مدرسة للمصلح العربي ، والدليل على ذلك انـــه كان كثيراً مايتذكر هذا الدور من حياته ليستمد منه قوى جديدة ليستعين بها على مكافحة خصومه والتغلب على تلك العراقيل التي كانت تعترضه في طريقه الاصلاحية وان هو نسي هذا الدور اذكره به ربه فقال :

« ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك » ( الانشراح ) ، اضف الى ذلك يتم الصبي وهو في سن الطفولة وتأثير احاديث الاهل والجيران عن امه وابيه الذي توفي وهو راجع من سوريا يرافق قوافل تجار مكة الاغنياء كعامل أو اجير بسيط لا حظ له من تلك القوافل لانه كان فقيراً جداً يخدم اصحاب الثروة في مكة باجرة زهيدة لاتقوم بأود عائلته .

وامر من ذلك تأثيرات التي في بيت عمه ابي طالب الذي آواه بعد وفاة والده وابو طالب ، كما نعلم لم يكن اسعد حظاً من اخيه عبد الله فكان مضطراً ان يستخدم ابن اخيه ويعول عليه في امور كثيرة صعبة . نعم لانتكر انه كان بين اقرباء الصبي اليتيم من كانت تعد ثروته بعشرات الالوف من الدنانير كعمه ابي لهب التاجر الغني المشهور او كعمه الثاني العباس صاحب الثروة الكبيرة التي

جمعها بالرباء الفاحش وجد اسرة بني العباس ، الا انه لا يستفاد من القرآن والسيرة ان هؤلاء الاعمام الاغنياء كان يهمهم امر ابن اخيهم الفقير او كانوا يعرفون عنه الشيء الكثير قبل ظهور دعوته وقبل ان يبدأ بتهديد ثروتهم المجموعة بشتى الطرق وانه ليغلب على ظني انه كان هذا التفاوت الكبير في الثروة بين اعمامه والتأمل العميق في اصل هذا التفاوت ومصادر تلك الثروة اعظم تأثير على عواطف الفتى ونفسيته ، وان هذا التباين في الفقر والغنى بين اعضاء العائلة الواحدة هو الذي نبه افكار النبي العربي الى النزاع الاجتماعي الموجود بين طبقات الناس في بلدته والبحث عن منابعه وهو الذي دفعه الى اعلان الحرب الكلامية على الطبقة الظالمة الفاجرة المحتكرة لموارد الثروة والمستغلة لاتعاب الفقراء وسكان البادية .

رسخت هذه الفكرة في نفس المصلح العربي وساعد على تقويتها والتمرس فيه ما كان يراقبه يومياً حين صار تاجراً او بالاحرى وكيلا تجاريا لامرأته خديجة . من الكذب والغش في التجارة والافلاس الكاذب واكل اموال اليتامى والتلاعب في الوزن والكيل والبذخ والترف في الطبقة العليا على حساب الفقراء والعمال الى غير ذلك من عيوب التجارة والمضاربة بالمال فعقد نيته على محاربة هذه الامراض الاجتماعية مهما كلفه ذلك من التعب .

فأنت ترى مما ذكرانه كان للوسط الاجتماعي الذي نشأ فيه النبي تأثير قوي على ظهوره ودعوته ومضمون اقواله في بادىء الامر بل في جميع ادوار حياته ، وانت ترى انه لاصحة لتلك الاحاديث التي تصوره بغير صورته الحقيقية ، ولتلك المساعي التي بدت في بعض

كتب ظهرت حديثاً في اوروبا وهي تحاول ان تجعل من النبي العربي رجلا مثرياً قام للمدافعة عن حقوق اصحاب الثروة والسلطة في بلاده ومصالحهم المالية . معاذ الله ان يحشر المصلح المكي بين كبار المتمولين ، او ان نقول ان دعوته كانت ترمي الى اغراض شخصية كما خيل لبعض كتبة الغرب ولكننا نعتقد ان للعوامل الاجتماعية التي قلما تظهر في الشرق الادنى السامي غير محتجبة بحجاب من الدين تأثيراً قوياً على دعوته وانه وقف في جانب الفقراء والصعاليك المظلومين وقفة رجل مغامر في الحياة ، ودافع جهاراً عن مصالحهم الحيوية معرضاً نفسه للخطر وغير مبال بعواقب عمله مدفوعاً الى ذلك بعوامل ادبية ودينية اكثر منه بعوامل اقتصادية او مالية .

كان سلاح النبي في هذه الحرب الاهلية التي اصلى نارها بنفسه ولا سيما في الدور المكي ، سلاح من سبقه من مصلحي الاعصر السابقة كسوقرات وزرداشت والمسيح وسائر انبياء بني سام الذين كان يحذو حذوهم ويتمثل بهم في جميع ادوار حياته من يوم برز للدعوة الى ان تم له الظفر .

وما هذا السلاح الا كلمة الاخلاص يدعو بها ويحذر ويستعطف ويسترحم ، ثم يوعد ويهدد ، ولا يخاف من القول لومة لائم ويقول الحق حتى على نفسه واقرب الناس اليه .

هذا عمه ابو لهب الذي برز لمناوأته وراح يفسد عليه عمله ويؤلب الناس عليه فانه يلعنه ويلعن امرأته ويوعدهما ( بنار ذات لهب تقوم على ايقادها امرأته وفي جيدها حبل من مسد ) .

وهذا احد عظماء مكة واغنيائها المغيرة بن الوليد الذي تعرض

للنبي واخذ يعاكسه في مهمته الكبرى ، فان النبي لم يخش بأسه وقوة ثروته بل دعاه في وجهه ( همزة لمزه ) واوعده بمحل خالد في الحطمة حيث لا ينفعه ماله الذي جمعه وعدده ) .

الى غير ذلك من ادلة الجرأة الروحية والاستخفاف بالاخطار والاقوال التي لم يعتدها سادات مكة واغنياؤها .

وهؤلاء كلهم وسمهم محمد بميسم العار والفضيحة واوعدهم بأشد العذابات في الآخرة بعكس الذين يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً واسيراً يطعمونهم لوجه الله .

هذه كانت لغة النبي في ذلك الوقت وهذا كل ما وسعه ان يعد به المؤمنين ويوعد به الكافرين وما الكافرون في نظره الا" الذين لم يلبوا دعوته وينزلوا عند حكمه في حل المسائل الاجتماعية والدينية هذه اللغة لم يستحسنها بعد عصرين الأسماعليه واخوانهم القرامطة بل ضحكوا منها وانتقدوها امر الانتقاد الا ان هذا لا يمنع انه كان لها في ايام النبي وفي فمه اعظم تأثير على سامعيه الذين لم يكونوا قد اعتادوها من قبل لانه لم يستعملها احد قبله في مكة .

فلا عجب اذن ان احدثت تلك العبارات حركة قوية بين سكان ام القرى على الاطلاق وطبقة الصعاليك منهم على الاخص اولئك الصعاليك الذين اعجبتهم كلمة الحق والانصاف فأخذوا يدخلون في دين النبي الجديد ويؤيدونه ثم يلتقطون كلامه ويحرضون عليه اما ان اكثر الذين اتبعوا في بادىء الامر النبي الأمي او كلهم ما عدا عثمان وابو بكر الصديق كانوا من الطبقة المتوسطة واصحاب الحرف الصغيرة وهذا ما لم يخف على اصحاب الطبقة العليا في مكة كما يظهر

في عبارتهم ومانراك اتبعك الا الذين هم ارذالنا وهذا كانوا يحتقرونه وجماعته ويعرضون عنه الى ان قويت دعوته واخذت تستميل اليها العناصر الغير الراضية عن حياتها الاجتماعية فلما احس بذلك اصحاب المال اخذوا يشعرون بالخطر الذي ابتدأ يتهددهم ويفكرون في طرق ملافاته ولا شك ان اول شيء شعروا به لم يكن الخطر على دينهم الذي تعرض له النبي في سورة المكية بل الخطر المالي وربما الاداري لان الدين لم يكن عند تلك الطبقة التي عرف اصحابها بميلهم الى الظن بالشيء المهم في جميع المسائل الدينية وانما كان خوفهم على اموالهم وسلطتهم لانهم فهموا ان اقبال صعاليك مكة على الدعوة الجديدة سوف يقضي على نفوذهم في البلاد وعلى ثروتهم المبنية على حج الكعبة والتردّ في اسواق الحجاز لان من نتائج انتشار الدعوة الجديدة ودخول الناس فيها القضاء على الكعبة وشعائر الوثنية التي لم تكن لتلتئم مع الدين الجديد وفي القضاء على مكة والدين القديم قضاء على سكانها كلهم وبالاخص على اصحاب الثروة والسلطة فيها.

وهذا نفسه ماحملهم على مقاومة المصلح الجديد قبل ان يستفحل امره واضطرهم لى اتخاذ شتى الوسائل كالانذار والتهديد والوعد والوعيد والوساطة والمقاطعة والطعن والهجاء لمنعه من نشر آرائه ووضع حد لدعوته الثورية في البلاد او على الاقل لاضعاف تأثيرها على عقول اهل مكة وارقائها وقد كانت مساعيهم تنجح ومكيدتهم تفلح لو لم يتساهل النبي مع خصومه قليلًا وقد كفر عن ذلك بان كر عليهم كرة اخرى اشد من الاولى وابلغ ورد كيدهم في

نحورهم. كانت ولا ريب هجرة المؤمنين ونبيهم الى المدينة فاتحة دور جديد في حياته وحياة الاسلام على الاطلاق وان من اكبر مميزات هذا الدور في نظري هو ان النبي اصبح بعد جهاد عنيد وحروب متواصلة مع خصومة القدماء ومع جيرانه الحديثين سيد قومه وزعيم عشيرته بل رئيس مملكة واسعة الاطراف بعد ان كان قبل ذلك واعظاً بسيطا مضطهداً ومنذراً ومبشراً سلمياً

واصبحت البلاد العربية بعد ثماني سنوات على هجرته تأتمر بامره وتنزل في كل شيء عند حكمه فصار من السهل عليه ان يقوم بوعوده ويحقق ما كان يدعو اليه في مكة من الاصلاح الاجتماعي ويحلم به منذ سنوات من المبادء السامية كالعدل والاخاء وتحرير المرأة والارقاء ومحاربته اسباب الشقاء والفقر بين ابناء بلدته بل في سائر البلدان العربية .

فمن الأصلاحات التي ادخلها على حياة الامة العربية وجعلها مبدأ من مبادئها هو هدمه للعصبة الجاهلية ومحاولته توثيق عرى المحبة والمساواة والاخاء بين الشعوب العربية ثم تحسين حال الفقراء بالصدقة اولا ثم بالزكاة وهي تلك الضريبة التي وضعها المصلح العربي على اولي الثروة واليسار لمنفعة الفقراء والصعاليك نعم ان هذه الضريبة الاشتراكية التي كان يرجى منها خير عظيم للفقراء صارت بعد وفاة النبي وخلفائه الاولين وبالرغم عن ارادتهم وسننهم تنفق او ينفق اكثرها على حاجات الدولة لا على الفقراء والاسرى الايتام والارامل وسبل الاصلاح ومن الاصلاحات التي جاء بها النبي كتحسين حالة الأمرأة ومنع الربا والبغاء

ووضع شرائع اجتماعية اخرى راقية ليس باقل خطورة من الزكاة اذ حكمنا على ذلك بنظر ذلك العصر قابلنا هذه السنن الجديدة بما يحاكيها من شرائع الامم الشرقية المجاورة لجزيرة العرب او البعيدة عنها ومع ذلك لابد من الاعتراف بان السنن المذكورة على ما فيها من عناصر الرقي لم تكن لتقتل كل جراثيم الامراض الاجتماعية التي اعلن عليها الحرب المصلح العربي الكبير ولذلك اسباب عديدة نقتصر هنا على ذكر بعضها . لاشك ان النبي العربي لم يقصد باقواله وافعاله في مكة والمدينة ان يستأصل اسباب الشر الاجتماعي ويقتل جميع جراثيمه كما يحاول ان يفعل اليوم جماعة الاشتراكيين على اختلاف اسمائهم ونزعاتهم . بل كانت غايته الكبرى ان تخفف من وطأة تلك الامراض ..

والا فلو اراد ان يقتل جراثيم الامراض الاجتماعية كلها لكان لجأ بعد ان اصبح صاحب الامر والنهي في جزيرة العرب الى وسائل غير التي ذكرناها . وما مثل النبي من هذا الوجه الا كمثل سائر الانبياء الذين سبقوه ولا سيما انبياء بني اسرائيل اي انه فضل استعمال الوسائل الادبية الا في ما ندر من الظروف على غيرها من الطرق التي لجأ اليها اليوم بعض مصلحي وسياسي اوروبا ( كلينين واتاتورك وموسوليني وغيرهم ) . وليس في هذا ما يقدح في ما ادخله المصلح العربي الأمي من الاصلاح على امة متأخرة جاهلة اذ ليس من العدل ان نطلب من النبي ان يستعمل في الربع الاول من العصر السابع وسائل للاصلاح لم تهتد اليها الانسانية الا في أواسط الجيل التاسع عشر وعليه يمكننا ان نقول ان محمداً اجاد

في وصف الامراض الاجتماعية العربية وتعدادها اكثر منه في علاجها واستئصال جراثيمهـــا . فان تصويره لتلك الامراض كان يبلغ احيانا حد الاعجاز ويحدث في عقول سامعيه ومخيـــلاتهم تأثيراً لا يمحى. اما علاجه للداء فكان أحط درجة من تصويره له الا ما ندر مثال ذلك ان النبي اول من تنبه الى استياء الطبقة السفلى في مكة والطائف من حالتها الاقتصادية والاجتماعية وأول من ادرك اسباب هذا الاستياء الا ان ذلك لم يكن ليحمله على قتل اسباب الاستياء قتلاً قاضياً ، كان يمنع مثلا التجـارة الشخصية ويجعلها كلها تحت مراقبة الحكومة التي اسسها في المدينة او يمنع الرق منعاً باتاً وينزع الاراضي من اصحابها ويجعلها ملكاً لمن يعتملها او يحتكر بقيـــة مصادر الثروة الفردية التي كانت ولا تزال أصل الشرور الاجتماعية او يستعمل وسائط اخرى مما يشير اليها الاشتراكيين هذا العصر .

أما ما يقوله البعض من ان النبي كان ينوي إلغـــاء ملكية الاراضي وجعلها مشاعة اي ملك للجماعة او الامة فهذا اسوء فهم لايؤبه له لان هذه الافكار لم تكن لتخطر على بال النبي لان مشكلة الاراضي لم تكن في ذلك الوقت من المشاكل المهمـة لان نظام العشائر او القبائل التي كانت العرب تجري عليه في ذلك العصر كان يحول دون جمع اراض واسعة في يد واحدة يستغلها صاحبها بانعاب غيره وباجرة بخسة كما كانت الحال مثلا في اوروبا وآسيا ومصر في عهد الاقطاع او كما هي اليوم في اكثر الاقاليم المذكورة فاذا صح هذا الرأي واني أراه اقرب الى الصحة من غيره نتج عنه انه لم يكن في ايام النبي ، في الحجاز طبقة خاصة من صعاليك الاراضي وعليه

لم يكن الاستياء الذي ذكرناه آنفا صادراً عن اصحاب هذه الطبقة ولا رأينا آثاره في الكتاب الكريم كما رأينا آثار غيره من اسباب الحملكة في مكة .

نعم نحن لا ننكر ان أراضي جزيرة العرب التي انتقلت الى أيدي المسلمين بالصلح وبعض الاراضي الواقعة خارج الجزيرة التي دخلت في حوزتهم بالسيف والتي لم تقسم بين المسلمين حسب القاعدة التي سنها النبي اصبحت ملكاً للامة الا انه لا يجب ان تستنتج من ذلك ان حكم هذه الاراضي ( الوقف ) كان كحكم الاراضي الشائعة اي ان الامة الاسلامية كانت تستثمرها على أسس شيوعية كما هي الحال مثلا اليوم في روسيا فيما يتعلق بالاراضي التي احتفظتها الحكومة لنفسها ولم توزعها على الفلاحين لأسباب عديدة لا حاجة هنا الى ذكرها .

فقد عرف عنا نحن العرب انا ميالون الى التطرف في كل شيء الى نضحية النفس والى الانانية الزائدة الى الحب العذري والى التهتك الى الصداقة النادرة والى الحقد اللانهاية له الى الشغف بالماديات الى الديموقراطية الحقة والى عبادة الشخصيات البارزة الى الاعتداد بالنفس وشدة الاعتماد عليها ، والى سرعة اليأس والسقوط في القنوط ، عند اول صعوبة نجدها في طريقنا وبعبارة اخرى ان في الامة العربية قوى عظيمة تارة تدفعها الى أشرف الاعمال ، وطوراً الى اسفلها وأخسها ، وسبب ذلك على ما يظهر لي ان هذه الامة العظيمة الذكية العاقلة على الاطلاق تعيش وتتمسك بعواطفها القوية اكثر منها بعقولها وتسير في حياتها واعمالها اليومية بقوة

المصالح الشخصية التي لا تترك سبيلا للحصول عليها الا طرقته هذا تاريخنا يشهد علينا اننا قوم ذو ذكاء ومقدرة على الاعمال وذو نظر بعيد ، ولكننا سريعو التأثير وضعيفو قوة التوازن « فسرعان ما نقع في اليأس ان اصابتنا مصيبة ، وان اصابتنا حسنة اخذتنا سورة الفرح وكدنا نفقد رشدنا وهذا الحكم ينطبق على الافراد والجموع ويجري على كبيرنا وصغيرنا وعالمنا وجاهلنا الا ما ندر ، ومن الاقوال المأثورة عند الاشتراكيين ان الادراك والشعور الذاتي يتوقف على الكينونة اي على المحيط وحالة المرء الاجتماعية فاذا تغير المحيط او حالة المرء الاجتماعية تغير شعوره الذاتي وتغيرت افكاره وسلوكه الا ما ندر وهذا ما حمل النبي العربي ، وقد تغيرت احواله الشخصية في المدينة ان يتبع في النصف الاخير من حياته الاجتماعية سياسة غير تلك التي اتبعها في مكة ، وهي سياسة اقتضتها الظروف الجديدة وما طرأ على نفسية النبي من التغير .

كان الدور المكي دور تمهيد واستعداد ، دور بث دعوة جديدة بين طبقات الأمة ، دور حرب ونزاع كلامي بين رجل ثابت في مبادئه مخلص في عمله وبين طبقة من الناس شعرت بالخطر على ثروتها وزعامتها في البلاد فهبت تقاوم ذلك الرجل وتناوئه دور جهود واحلام لو تحققت كلها لقلب البلاد رأسا على عقب ، ما اجمل هذا الدور ما اعظمه ، وما احلى تلك الاحلام والمساعي التي بذلت في تحقيقها . اما الدور الثاني فكان دور عمل وتنظيم دور حرب وافتتاحات دور سياسة ومكاشفات ادت الى تساهل من الطرفين . وهذا ما كان من امر النبي العربي ورئيس جمهورية مكة

الخبير المحنك الذي كان يتكلم بلسان الملأ المكي . هـــذا يعترف بسيادة النبي الروحية والعالمية ويهجر الاوثان ويؤدي الزكاة ويقيم الصلاة وذاك يتعهد ان تبقى مكة مركز البلاد العربية الديني وان يجعل لاعيان مكة وقادة افكارها حظا في ادارة المملكة او الجمهورية الروحية . اما الفريق الثالث وهو الطرف الذي استعرت الحرب لأجله ، وظهرت الدعوة لتحسين احواله فقد ارضوه في بادىء الامر بشيء من الصدقات والزكاة ، ثم نسوه او تناسوه بعد وفاة النبي وحلفائه الاولين فرجع الى حالته الاولى ، بل الى ماهو اسوأ منها كما سترى بعد ذلك .

وأصبح الملأ المكي منذ تولى الخلافة عثمان بن عفان صاحب الامر والنهي في البلاد واصبح ابناء ابي سفيان رئيس هذا الملأ واكبر اعداء النبي كتبته المقربين وقواد جيشه الفاتحين وعمالئه المبرزين في البلاد المفتوحة بسيوف المسلمين ، ثم اصبحوا ملوك تلك البلاد لاينازعهم من الملك منازع الا قبضوا عليه ، فكأن دعوة النبي وثورته الاشتراكية واتعاب خلفائه الاقربين ، لم تكن الا لتؤيد خصومه في مراكزهم بل لتزيد في نفوذهم وثروتهم ، واغرب من ذلك وانكى ان تجار مكة في الامس قد استفادوا من الحركة الاسلامية وبعض افكار ومبادىء عدوهم فاسسوا دولة من اعظم دول العالم تكاد لاتكون بينها وبين الامة التي اوجدها النبي علاقة تذكر ، وفي ذلك من الادلة على ذلك بني امية وبعد نظرهم وحنكتهم في السياسة ما لاينكره الا كل مكابر جاهل او متعصب ذميم .

# الحكومات العربية والامم المغلوبة

ألمعنا في الفصل السابق الى ان المعضلة الكبرى ومسألة المسائل التي حامت حولها عقول اعظم ابطال الاعصر السابقة ، ولا تزال تعالجها علماء وساسة هـــذا العصر وهي مسألة التوفيق بين مصالح الطبقات المتضادة اي بين الغني والفقير ، السري والصعلوك وبين اصحاب المعامل والاراضي الواسعة والعمال والفلاحين ، تلك المسألة التي طرقها المصلح العربي ايضاً وحاول ان يحلها على قدر ما سمحت له به ظروف ذلك العصر انتقلت بعد وفاته الى خلفائه مع غيرها من المعضلات السياسية والاجتماعية ، الا انها اخذت تزداد صعوبة وتعقيداً بعد الفتوحات الكبيرة التي فتحها العرب في ايام الخلفاء الراشدين وبني امية ، وانصهار الامة العربية في غيرها من الامم المختلفة صاحبات العمران القديم والاديان المتباينة . فنتجت من ذلك حالة اجتماعية جديدة توترت فيها العلائق بين طبقات المجتمع الاسلامي ، وبلغ هذا التوتر درجة اصبحنا نخشى معها حدوث انفجار عظيم واصطدام عنيف كانت تكون عاقبته سقوط الدولة العربية وموتها ، ومما ساعد على زيادة توتر تلك العلاقات هو سيـــاسة الامبراطورية العربية على الاطلاق والاقتصادية على التخصيص .

لا ريب في ان اشتغال العرب بالفتوحات الواسعة وتمصير البلدان مع مايتبع ذلك من تدفق الاموال المغتصبة والمجموعة بشتى الطرق الى جزيرة العرب وتفرق القبائل العربية في عرض البلاد المفتوحة وطولها الهتهم زمناً طويلاً عن التفكير في المسائل الاجتماعية التي كانت اهم بواعث الحركة الاسلامية ومصدر ثروتهم ، بل ربما انستهم اياها . ثم لا ريب ايضاً في ان الفتوحات المذكورة واتخاذ عواصم جديدة خارج جزيرة العرب ، كل ذلك قد ساعد على انتقال مركز الحركة الفكرية من مكة والمدينة الى غيرها من المدن الكبيرة العريقة في التمـــدن ، ومن العرب الى غيرهم من الامم المقهورة ، لا لأن هذه الامم كانت اقدر من العرب على التفكير واعرق في الثقافة والحضارة ، ولا لان البلاد المفتوحة عرفت الحركات الاجتماعية او الاشتراكية قبل الفتح الاسلامي فكانت اقرب الى تناولها واقدر على فهم اسباب ظهورها من الامة العربية التي لم تسمع بها ولم تفكر فيها الا في اوائل العصر السابع وفي قسم صغير من بلادها ، بل لان الشروط الضرورية لظهور هذه الحركات كانت متوفرة بين الشعوب الغير العربية والغير المسلمة اكثر منها بين الامة العربية في ذلك الوقت ، والمراد بالشروط هنا حالة تلك البلاد الاقتصادية والادبية .

لو حاولت ان اصف هنا حالة الشعوب المغلوبة في الدور العربي او الخلافة الاسلامية وصفاً كاملاً وشاملاً لجميع مظاهر حيـــاتهم الاجتماعية والدينية والادبية ، او حاولت ان ألم بجميع العوامل التي كانت تدفع الشعوب المذكورة في بعض الأحيان الى الخروج

على الامة الغالبة ومقاومة تلك الامراض التي شرع في محاربتهـــا المصلح العربي الكبير ، لكنه لم يتمها للاسباب التي ذكرنا بعضها آنفا ، لاحتجت الى وقت طويل وصفحات تزيد على صفحات هذا الكتاب ، ولهذا اراني مضطراً ان اقتصر على ذكر القليل فقط من تلك العوامل مستعيضا عن ذلك بذكر بعض المصادر العلمية . ان نظام الضرائب الذي وضع اساسه المصلح العربي مع ما ادخله عليه خلفاؤه من التغييرات والزيادات ولا سيما عمر بن الخطاب مؤسس الامبراطورية العربية الحقيقي وواضع دستورها ونظامها ثم خلفاء بني امية .

كان عبئاً ثقيلاً على عاتق الامم المغلوبـة اكثر منه على عاتق الامة الناتجة وذلك لأن هـذه الامم كالأقباط والسريان والفرس والترك الخ . كانت مضطرة بحكم هـذا النظام ان تؤدي ما عدا ضريبة الاراضي ـ الخراج ـ والجزية ضرائب ورسوماً اخرى على الصنائع والحرف ربما كانت اشد وطأة على الاقوام المذكورة من الخراج والجزية لانها لم تكن محدودة معروفة ومبنية عـلى قاعدة مقبولة وكان مقدارهـا وزمن تأديتها منوطين بعمال الخليفة وجباة المـال ، بعكس الخراج والجزية فأنهما كانا محددين ومعروفين من قبل ، فلم يكن للعمال والموظفين مجال واسع للتلاعب بهما ، وان لم تكن وطأتهما على الزراع واهل الذمة بأخف منها عن غيرهـــا اضف الى ذلك ما كان يتحمله اصحاب الجزية من الذل والاهانات يوم كانوا « يؤدونها عن يدٍ وهم صاغرون » التوبـــة ٣٠ ) واذا احببت ان تدرك معنى هذه العبارة الحقيقي وتطلع على شيء مما كان

يحدث يوم كان اهل الذمة يؤدون الجزية فما عليك الا ان تطالع كتب التاريخ والفقه وتقرأ ما كتبه عن الخراج والجزية ابو يوسف وابن آدم وغيرهما . هذا ولما لم يكن سبيل آخر الى التخلص من هذا الذل والارهاق الا الدخول في الاسلام كنت ترى سكان العراقين وفارس وبـــلاد الترك يدخلون في دين الله افواجاً حتى كادت مصر مثلا في خلافة عمر بن الخطاب تخلو من اهل الذمـــة واصحاب الخراج وكاد المال ينفد من بيت المال في ايام عثمان وعلي وقـــد كان كثيراً قبلهما ، وهذا ما حمل خلفاء بني امية — الاعمر بن عبد العزيز — وعمالهم في الشرق والغرب على نسخ سنة عمر الاول واخذ الجزية حتى ممن كان يدخل في الاسلام، وفي ذلك من بواعث الاستياء واسباب السخط على دولة بني امية ماهو معلوم عند الجميع .

لا ريب ان دخول اهل البلاد المغلوبة في الاسلام في النصف الاول من العصر الاول للهجرة كان يؤدي الى تحسين بـــين في احوال الفلاح والعامل المادية والادبية ، وان لم يكن يساويهم بالعرب اخوانهم في الدين وذلك لان العرب كانت تنظر الى هؤلاء الدخلاء في الدين والقومية العربية بعين الاحتقار خلافاً للمبدأ الجميل الذي جاء بـه النبي وامر اصحابه باتباعه الا وهو مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات والاخاء بين جميـــع المسلمين على اختلاف قومياتهم وطبقاتهم الاجتماعية واحوالهم الشخصية ومـع ذلك فلا ينكر احد ان حالة هؤلاء الدخلاء الاجتماعيـة كانت كما قلنا قبل ذلك احسن من حالة اخوانهم في الامس الذين ظلوا محافظين عـلى

اديان اجدادهم وآبائهم وعندنا ادلة صريحة وشواهد تاريخية عديدة على ان احوال هؤلاء الآخرين اخذت تسوء رويداً رويداً وان الحكومة وعمالهـــا صاروا ينظرون اليهم نظرهم الى بقرة حلوب ومورد جديد للاثراء وسوء الاستعمال كما كانت الحال مع اليهود في اوروبا في الاجيال الوسطى او في بعض انحاء روسيا قبل الحرب العظمى الاولى .

يظهر لنـا ان سوء الاستعمال في جباية الاموال ووضع بعض ضرائب على غير المسلمين ابتداء من آخر ايام خلافة عمر بن الخطاب كما يفهم من الشكاوي العديدة التي كانت ترفع اليه .

ومنهـا شكوى الفاعل الفارسي فيروز الذى حضر الى المدينة ليشكو عامل الكوفـة مغيرة بن شعبه فلم ينصفه الامير من عامله فقتله في المسجد فكان اول شهيد في الاسلام مـات ضحية نظامه الاداري وسياسته الاقتصادية .

يقولون ان عمر بن الخطاب المعروف بعدله وشدته كان يقاوم جور عماله وبحثهم دائما على انتهاج طرق العدل ويدعوهم الى الشفقة على رعاياهم ويتوعدهم بالعقوبات الشديدة ان هم اخلوا بواجباتهم ثم كان يعزلهم ويستصفي اموالهم الا ان هذه الوسائل كلها لم تكن لتمنع تسرب اموال الرعية ولا سيما اهل الذمة منهـا الى جيوب الموظفين وتحول دون تجمع ثروات كبيرة في ايدي بعض الناس وظهور طبقة جديدة مثرية في المدينة عاصمـة المملكة الجديدة التي اخذت تتحول بسرعة غريبة من بلدة صغيرة الى مدينة كبيرة ذات اسواق واسعة ملأى بالبضائع الاجنبية وطبقات اجتماعية جديدة لم

تكن موجودة فيها قبل الاسلام .

توفي الخليفة المصلح والفاتح العظيم عن ستين عاماً قضى العقد الآخير منها في تأسيس امبراطوريته العربية العظمى وسن القوانين الضرورية لحفظها وضمانها من عثرات الزمان وعبث الرجال فخلفه بعد جدال طويل وازمة خلافية ذات شأن صهر النبي واحد أصدقائه الاولين عثمان بن عفان احد اشراف بني امية واغنيائهم وأحد أدباء عصره القليلين . بويع عثمان بالخلافة وهو في سن لم يقدر معها ومع ما كان عليه من ضعف الارادة وتعلقه باهله وأقاربه ان يسوس المملكة الجديدة الواسعة الاطراف بنفسه فاضطر ان يسلم ادارتها الى بني امية ابناء عمه واقدر الناس في ذلك الوقت على ادارة البلاد فلم يرض ذلك اكثر الصحابة وحزب المسلمين القديم وجماعة من آل ابي بكر وعمر فأخذوا جميعهم يقاومون الخليفة واهله ويدسون لهم الدسائس ويحرضون الناس عليهم فساءت حالة المملكة ولا سيما حالة الطبقات السفلى من الاهالي وظهرت او بالاحرى قويت الاحزاب السياسية فكان من ذلك ما هو معروف عند الجميع مما لا حاجة الى ذكره هنا فقتل الخليفة الثالث وانتقلت الخلافة الى صهر النبي الثاني وابن عمه علي بن ابي طالب فكانت ايام خلافته حروباً ومنازعات انتهت بعد ست سنوات بقتله وانتقال الخلافة سنة ٦٦١ الى بني امية خصوم النبي والاسلام حتى سنة ٦٢٨ م .

كان يؤمل ان حالة الزارع والفاعل من اهل الذمة وغيرهم تأخذ في التحسن في خلافة بني امية لما عرف عن اكثرهم بعد النظر في السياسة وسداد الرأي والحزم عند الضرورة وميلهم الى مراعاة عواطف

الشعب البسيط والتقرب منه الا ان حبهم للاموال الذي ورثوه عن اجدادهم تجار مكة وحاجتهم الماسة اليها لقضاء مهامهم السياسية الكبرى والقيام بالفتوحات الواسعة الصعبة ومحاربته اعتدائهم داخل البلاد الى غير ذلك من الاسباب التي اوجدها التغير الاجتماعي الذي ظهر في دار الاسلام في السنوات الاخيرة التي مرت كانت تضطرهم الى طلب المال بكل الوسائل ومن جميع اطراف امبراطوريتهم الواسعة او بعبارة اخرى الى زيادة الضرائب على الاهالي وجمعها باشد الطرق واثقلها على الطبقات التي كانت تؤديها .

معاذ الله ان انكر فضل بني امية على الامة العربية وبعض حسناتها على الامم المغلوبة كالفرس مثلا الذين الغوا بينهم النظام القديم المبني على تفاوت الطبقات وسادوا بينهم في الحقوق والواجبات او كالاقباط والسريان والعرب المسيحيين الذين عاملوهم في بادىء الامر بالحسنى ورفعوا عنهم نير الحكومة البيزنطية الديني وخفضوا الضرائب التي كادت تنقض ظهورهم الا ان ذلك لايمنعني ان اقول ان حالة الطبقات السفلى من الاهالي اخذت تسوء في اواخر ايام بني امية وان الخلفاء المذكورين كانوا مضطرين للاسباب التي ذكرتها ان يضعوا من الضرائب وان يستعملوا من الطرق لجمعها ما لم تكن لترض عنه بعض طبقات الناس . نذكر من ذلك نسخهم لسنة النبي وخلفائه الراشدين المتعلقة بحقوق او امتيازات من كان يعتنق الاسلام من اهل الذمة والشرك فقد كانت سنة النبي وخلفائه الراشدين ان تعفى هذه الطبقة من الناس من الجزية والخراج الا اذا كانت الارض خراجية من يوم الفتح الاسلامي اما بنو امية

الاعمر بن عبد العزيز — فانهم حملوا اهل الطبقة المذكورة على تأدية الجزية والخراج كأنهم لم يدخلوا في الاسلام ولم تجر عليهم احكامه فكانت نتيجة هذه السياسة الاقتصادية ان قل عدد الداخلين في الاسلام وزاد استياء الذين دخلوا منهم في الاسرة المالكة والدين الجديد حتى حملهم على الخروج عليها والعمل مع سائر اعدائها على اسقاطها فهذه الامة القبطية مثلا التي استقبلت الجيش العربي الفاتح استقبال الصديق الاعز الزاحف لتخليصها من ايدي عدوها وساعدته بالقوة والنصيحة على فتح البلاد لم تلبث ان انقلبت عليه واخذت تسيء الظن به وتتذمر من سياسته الداخلية والمالية لانها رأت من افعاله ما نفرها منه واوغر صدرها عليه وجعلها تحن الى ايام عبوديتها السابقة : قال الكاتب القبطي سويرس يشكو حال امته في اواخر خلافة بني امية ان كثيرين من اغنياء وفقراء ملتنا انكروا الدين المسيحي هربا من الخراج وسائر الضرائب الباهظة) وهناك ادلة وشهادات كتابية اخرى لاتدع محلا للشك في ان استياء الامم المغلوبة من سياسة بني امية المالية لم يقف عند التذمر والاحتجاج والبكاء والاستعطاف بل كان يتعداه احياناً الى الخروج على الدولة وعمالها واعمال السيف فيهم نذكر من ذلك خروج الترك في آسيا الوسطى سنة ٧٣ه . على العرب واصحاب السلطة هناك لانهم أبوا ان يتساهلوا معهم في مسائل مالية ونكثوا بوعودهم نحو فئة كبيرة من قبائل الترك دخلت في دين الاسلام لا عن اعتقاد بل على أمل ان يحط عنها جباة المال الجزية اسوة بمن كان يدخل في الاسلام في عصر الخلفاء الراشدين ووفاء بالوعود التي وعدهم بها عمال وشيوخ

الدولة العربية يوم دعوهم الى الاسلام ولولا ما ابداه عمال الخليفة ورؤساء جنده من الحزم وما بذلوه من المال لقضت تلك الثورة على سلطة بني امية في طول البلاد التركية وعرضها ، اذ لم يبق في تلك السنة ٧٢٨) في ايدي العرب من مدن آسيا الوسطى الا سمرقند والديوسية التي كادت تخرج منهم سنة ٧٣٠ بعد حروب طويلة مع خاقان الترك الاعظم ومن التف حوله من امرائهم وملوكهم الصغار وقد ساعد على استفحال الامر وصعوبة الحال ان بعض العرب من أئمة المرجئة الذين هدوا الاتراك الى دين الله ووعدوهم باسم حكومة دمشق تلك الوعود كانوا في جانب الترك يحبذون عملهم وينحون باللائمة على اصحاب السلطة وممثليها في تلك البلاد الذين غلب عليهم حب المال حتى انساهم سنة النبي وخلفائه الراشدين.

هذه كانت نتائج سياسة خلفاء بني امية المالية ليس فقط في البلاد التي ذكرناها بل في العجم والقوقاس وما وراء القوقاس وسائر البلاد المفتوحة كما سنرى ذلك وكلها نتائج وخيمة ذات تأثير رديء على سلطة بني امية وسني حياتها .

ومثل ذلك في الوخامة وسوء العاقبة نظام الاراضي الجديد الذي جروا عليه من يوم اصبح الحكم في ايديهم وخلاصة هذا النظام انهم اطلقوا الحرية لمن أراد من العرب المسلمين ان يقتني ما شاء من الاراضي خارج جزيرة العرب بعد ان كان ذلك ممنوعاً كما يقال في ايام ابي بكر وعمر فكان من ذلك ان تهافت اصحاب الثروة والسلطة من العرب على امتلاك الاراضي في العراق ومصر وسائر البلاد المعروفة بحسن تربتها وغزارة مياهها واخذوا يعملونها

ويستثمرونها بكل ما كان لديهم وقتئذ من الوسائل فأدى ذلك الى انتقال اكثر الاراضي الطيبـــة الى اشخاص او عائلات قليلة اصبحت ذات ثروة كبيرة فلم يمض على ملك بني امية خمسون سنة حتى اصبح اخصب اراضي مصر والعراق في ايديهم وايدي حلفائهم وموالـيهم ومثل ذلك يقال عن اراضي خراسان وما وراء القوقاس حيث انتقلت اخصب الاراضي وأوسعها كموقان ومغازة شروان الى ايدي طبقة صغيرة من العرب المقربين الى اصحاب السلطة ومن اعضاء الأسرة المالكة نفسها ، يستغلونها بواسطة علوج البلاد وزنوج افريقيا الذين كانوا يأتون بهم بالألوف من بلادهم ويجـــبرونهم على الشغل في مستنقعات مصر والعراق وما وراء القوقاس حيث كانت المـــلاريا والحر والجوع تفتك بهم فتكاً ذريعاً ، كما كانت تفتك باخوانهم في الولايات الجنوبية من اميركا الشمالية حتى أوائل النصف الاول من العصر الماضي .

إذا اردت ان تعرف كيف كانت تنتقل الاراضي المذكورة من أيدي اصحابها الاصليين الى ايدي الطبقة المذكورة من العرب فما عليك الا ان تطالع مؤرخي العرب كالبلاذري واليعقوبي والطبري وغيرهم وهناك تجد اخباراً ضافية عن املاك بني أمية وموالـيهم ، وتقرأ صفحات كاملة ، عن طرق استغلال هـــذه الاملاك وحالة العاملين فيها .

ثم هناك سبب آخر كان يدعو احياناً الى حركات عدائية ضد السلطة الحاكمة ، ليس فقط بين من أسلم من اهل الذمة والكفار ، بل بين العرب المسلمين انفسهم وما هذا السبب الا ذلك القانون

الذي وضعه — كما يقال — عمر بن الخطاب وهو ان اراضي الخراج اي التي كانت تؤدي عند الفتح العربي الخراج لا العشر ظلت تؤدي هذه الضريبة حتى بعد الفتح وبعد ان انتقل قسم كبير منها الى ايدي المسلمين . نعم ان هذا القـــانون لم يسنه بنو أمية انفسهم الا انهم حافظوا عليه لا مراعاة لخاطر عمر ولا حباً به وبسنته . بل حبـاً ببيت المال ، او الأصح بالمال نفسه ، وخوفاً من ان ينتقل ما بقي من الاراضي الخراجية الى ايدي المسلمين والطبقـة الممتازة ، او طبقة الارستوقراطيين المعادية لهم .

فمحافظتهم على القانون امر حسن في حد ذاته ، ومفيد لمصالح الدولة ، فلا لوم اذن عليهم ولا تثريب لو ساووا في أخذ الخراج بين الملاكين القدماء من اهل البلاد ، وبين الملاكين الحديثين من المسلمين ، إلا انهم لم يكونوا ليساووا بين هذين الطرفين للأسباب التي ذكرناها سابقا ، والتي ترجع الى كره العرب للأجانب وأنفتهم الجاهلية ، ورفضهم لمبدأ المساواة بغـير العرب ، فلا عجب والحالة هذه ، اذا وجدنا قسما كبيراً من سكان البلاد المغـــلوبة ناقما على العرب ودولتهم ، يعمل سراً وعلانية على تقويض ملكهم ومقاومتهم بالسيف والقلم ، ولعله كان بالقلم اكثر منه بالسيف ، كما تشهد على ذلك الحركة الشعوبية التي اشترك فيها الفارسي والنبطي والقبطي والتركي وغيرهم من الشعوب الواجدة على سياسة بني أمية العربية .

بقي هناك عامل آخر من عوامل الاستياء لا بد من الاشارة اليه ولو بعبارات قليلة وهو يرجع الى ما أدخله عبد الملك بن مروان من الاصلاح على ادارة البلاد بعد ان جمع شملها ووحّد كلمتها ،

كمسح الاراضي مسحا جديداً او تسجيلها في سجلات جديدة بلغة الدولة وضبطها ضبطا محكما لا تستطيع معـــه اصحاب الاراضي التلاعب بمقدار الاراضي ونوعها او بمقدار الخراج او العشر المطلوب عنها كما كان الحال قبل هـذا الاصلاح يوم كانت الاراضي مسجلة بسجلات قديمة يرتقي عهدها الى ايام الرومانيين او بني ساسان وبلغات لا يفهمهـا اصحاب السلطة الجديدة ، اضف الى هذا الاصلاح المهم اصلاحا آخر؛ وهو سحب النقود القديمة التي كانت دارجة في البلاد حتى خلافة عبد الملك وصك نقود جـديدة كتبت عليها آيات من القرآن عوض الصليب وموقدة النار التي كانت على النقود القديمة وأهم من هذا الاصلاح في توحيد الامبراطورية العربية ادخال اللغة العربية في الدواوين والمكاتبات الرسمية بدل اللغات اليونانية والقبطية والفارسية التي كانت لا تزال مستعملة في سوريا ومصر وبلاد العجم ، ثم تعيين موظفين من ابناء العرب او من الذين كانوا يحسنون اللغة العربية وهم في ذلك العصر قليلون — الى غير ذلك من التغييرات المهمة التي حاول عبد الملك ان يربط بها البلاد رباطـــاً معنوياً بعد ان جمع اطرافها بالسيف وحسن السياسة كل ذلك كان ضروريا لحياة الدولة المترامية الاطراف ، وكان لابد منه في خلافة عبد الملك بن مروان اعظم خلفاء بني امية وابعدهم واحدّهم نظراً بعد الذي رآه بعينه من الخلل في البلاد وما آلت اليه الخلافة العربية بعد وفاة والده مروان بن الحكم من التفكك الذي كاد يقضي عليها لو لم يبعث الله لها خليفة مثل عبد الملك . إلا انه كان لهذه الاصلاحات كما لكل اصلاح مهم تقوم به احدى الدول مساس بمصالح بعض الامم او

بعض الطبقات المادية وعواطفها القومية فلم تحبذ هذا الاصلاح لانها ظنته موجها الى مصالحها الخاصة وتقاليدها القديمة فكان هذا من جملة الاسباب التي جعلتها تنقم على الدولة المصلحة وتعمل في السر والجهر على الايقاع بها وتتمنى سقوطها .

إن سقوط الامبراطورية العربية الاولى وقيام دولة بني العباس مكانها لم يحدث على وجه الاطلاق في حالة الامم المغلوبة تغيراً ظاهراً يذكر ، وسبب ذلك ان سياسة بني العباس الداخلية ، وبالاخص ما كان له علاقة بالمال والاراضي والاقتصاد ، لم تكن لتختلف كثيراً عن سياسة بني امية ولا سيما في خلافة ابناء المنصور واحفاده وذلك بعكس سياستهم الادارية والحربية او الاستعمارية — كما يقولون اليوم — فان لهذه السياسة مميزاتها الخاصة وطابعاً عباسياً تمتاز به عن سياسة من سبقهم من الخلفاء الراشدين وبني امية .

قلت ان سياسة بني العباس المالية كانت اقرب الى سياسة بني امية في ايام اولاد المنصور واحفاده منها في ايامه ، وهذا امر محقق لان المنصور كان افدر خلفاء بني العباس وابعدهم نظراً ، فكان يرفق بالفلاح والعامل ، ولانه اول من ادرك من خلفاء وسلاطين الشرق تلك الحقيقة البسيطة التي يعلمها اليوم طلاب المدارس وهي ان سعادة الدولة وثروتها وعزها تتوقف على سعادة افرادها ورضاهم. ولما ادركها بصائب فكره وذكائه الفطري او بايحاء من وزيره البرمكي آلى على نفسه ألا يرهق رعيته بالضرائب وان يتقرب اليها برفع بعض المكوس عنها او باصلاحها على طريقة تضمن للزارعين والعملة نتيجة اتعابهم مما دعا الزارع الى الاقبال على زراعة اراضيه

والاهتمام بها والفاعل الى ان يجد في عمله الذي اوجده له الخليفة المصلح في عاصمة البلاد الجديدة وغيرها من المدن والقرى ، فكان من ذلك ان اثرت البلاد واخذ الناس يشعرون بالرخاء والراحة ، ولا سيما في النصف الثاني من حكم الخليفة المذكور ، ثم ان الحيوية الاجتماعية في ايام المنصور لم تكن مثلها في ايام خلفائه فلم يكن دخلها بعد الترف والبذخ اللذان نعرفهما في ايام الرشيد وابنائه ، ولم يكن استفحل بعد امر الحريم والغلمان والخصيان ، ولم تظهر الدسائس العائلية والسياسية ، الى غير ذلك من مظاهر الفخفخة والاستخفاف بمال الناس ، الذي اخذوا يشعرون بشدة الحاجة اليه ويطلبونه بجميع الوسائل او جمع الاراضي الطيبة في ايادٍ قليلة وبيع جباية الخراج وسائر الضرائب من اشخاص عرفت بشرههاوشراستها او من عمال الدولة ومساعديهم الذين كانوا اشد ظلماً على الرعية ، واسرع الى الارتشاء من غيرهم من الجباة الذين كانوا على كل حال تحت مراقبتهم. زد على ذلك نفقات البلاط الخليفي وحرمه ونفقات امراء الجيش من اتراك ومغاربة وعجم ، ثم قتل البرامكة واضطهاد من سلم من اصحابهم وموالي الاسر السابقة الى غير ذلك من مظاهر الظلم وابواب النفقات الباطلة التي لم تكن معروفة في ايام المنصور وبني امية فتتبين لك اسباب استياء بعض طبقات الامة العربية واكثر الامم المغلوبة من سياسة بني العباس ، ومحاولة هذه الامم اسقاط الدولة المذكورة ، ولا نستثني من بين هذه الامم امة واحدة حتى الامة الفارسية التي كان ينتظر ان تكون راضية عن حالتها في ايام بني العباس وسعيدة بما طرأ على الامبراطورية العربية من التغيير

الذي ادّى الى انتقال عاصمة المملكة الى جوارهم واشراك الطبقة العالية منهم في ادارة البلاد واقتباس بعض انظمتهم وعاداتهم القديمة الى غير ذلك من طرق المجاملة والتزلف اليهم .

ومع ذلك لم تكن الفرس راضية عن حالتها في خلافة بني العباس عامة وخلافة الرشيد خاصة ، وقد اخذ استياؤهم يظهر بصورة جلية بعد نكبة البرامكة حين اخذت الفرس تدرك ان سياسة بني العباس نحوهم لم تكن لتختلف كثيراً عن سياسة اسلافهم ، وانهم لم يكونوا يجاملونهم ويقربونهم من انفسهم في اول عهدهم بالخلافة الا لانهم كانوا في حاجة ماسة اليهم ، ولان مصلحة اسرتهم كانت تقتضي ذلك ومصلحة الشعب الفارسي ، ولولا ذلك لما قضوا على حياة ابي مسلم الخراساني الذي اجلسهم على كرسي الخلافة وحياة كثيرين من عظماء الفرس وقوادهم . ولهذا ، ولأسباب اخرى لم يمض على حكم بني العباس زمن طويل حتى اخذ الفرس يشعرون بان لا داعي لسرورهم من التغير السياسي الذي تم بمساعدتهم في الخلافة الاسلامية وانه لا امل لهم في تحسين شروط حياتهم الاقتصادية والحقوقية ، لانهم رأوا ان الاسرة الجديدة تتبع في سياستها الداخلية سياسة الاسرة السابقة ، أي سياسة السوط والسيف ، ولا سيما نحو الطبقات السفلى ، اي طبقات المزارعين والفعلة والمحترفين الصغار وهم الاكثرية في البلاد كما هو معلوم ، بل ان سياستها نحو الطبقات المذكورة اشد وطأة واوخم عاقبة من سياسة خلفاء بني امية معها وهي الحقيقة التي يؤيدها التاريخ ويشهد على صحتها كتبة بني العباس انفسهم واليك بيان ذلك بالاختصار :

من المعلوم ان مؤسس دولة بني العباس الحقيقي واعظم خلفائها عبد الله المنصور حاول ان يشيد دولته اولاً على التوفيق بين مصالح الامتين الكبيرتين التي كانت تتألف منهما الدولة الاسلامية في عصره وهما العرب والفرس ليخالف بذلك سياسة بني امية الداخلية التي كانت عربية محضة ترتكز على مراعاة الموازنة بين مصالح الاحلاف العربية الكبيرة وهم قيس واليمن ، وحاول ايضاً ان يقضي على سوء التفاهم الذي وقع بين تينك الامتين في ايام الاسرة السالفة .

وثانياً على الطبقات الراقية الفنية من الامتين ، فكان من جراء ذلك انه اخذ يتقرب الى اصحاب الاملاك (الدهاقنة) والتجار واهل الادب والعلم وبالاخص الى الطبقة الارسطوقراطية القديمة كآل برمك وغيرهم ممن كانت قضت على نفوذهم في البلاد وقسم من ثروتهم سياسة بني امية الديموقراطية ، فعادت هذه الطبقات الى مراكزها السابقة واخذت تلعب اهم الادوار في حياة الدولة العباسية عامة وحياة شعبها الفارسي خاصة ، فنتج عن ذلك ان الفلاح الفارسي الذي اخذ يشعر بشيء من الحرية الشخصية ، ويتمتع بمحصولات اراضيه في عصر بني امية اصبح الآن بين نارين لا يدري ايهما اشد حرارة على قلبه وتحت نيرين ثقيلين نير الدولة الغريبة عنه ونير الطبقة الارسطوقراطية المبعوثة حديثاً من قبرها فصار مضطراً ان يعمل لسيدين : سيد بغداد البعيد عنه والذي لم يكن يعرف عنه الا الشيء القليل ، وسيده الغريب منه صاحب الاملاك الواسعة والسلطة الحقيقية عليه لان هذا السيد كان مكلفاً جباية الضرائب ووضع المكوس الى غير ذلك من الاعمال التي لها مساس بحياة الفلاح الفارسي رأساً .

الا ان الاستياء من الدولة الجديدة لم يكن محصوراً في طبقة الفلاحين والعمال للأسباب التي ذكرنا بعضها بل كان يتعداها الى الطبقات الاخرى حتى الطبقة العالية اي طبقة الدهاقين الكبار ورؤساء الدين القديم لما اصابهم جميعاً من الفشل في سعيهم وراء استقلالهم القومي واعادة دينهم القديم واحياء آدابهم ولغتهم الى غير ذلك من الآمال الحلوة التي كانوا يعلقونها على ظهور دولة بني العباس التي كانوا في بادىء الامر اشد الناس ولاء لهـــا وضحوا في سبيل مصلحتها ارواحهم واموالهم كما هو معروف اضف الى ذلك زيادة الضرائب والرسوم واضطهاد اصحاب الدين القديم وغير ذلك من الاعمال المغايرة لروح الامة الفارسية ، فتدرك حينئذٍ اهم اسباب استياء الشعب الفارسي والشعوب المجاورة له التي عاشت اجيالاً تحت تأثير النظام والأدب واللغة الفارسية من سياسة خلفاء بني العباس ومحاولتها مرات عديدة التخلص منهم ، وقد دامت هذه المحاولات سنين عديدة ولم تنته الا بسقوط الدولة العباسية ودخولها مع من كان تحت سلطتهم من الامم تحت حكم علوج آسيا الوسطى ومنغوليا لو اردنا ان نذكر جميع الثورات التي « اقامها الشعب الفارسي على الدولة المباركة » من يوم ظهرت اول ثورة سنة ٧٥٥ ( ثورة سمباز ) الى آخر ثورة عقبهـــا سقوط الدولة المذكورة لضاق بنا المقام . ولاخطررنا ان ندخل في باب التاريخ المحض ، على انه لا بد من الاشارة الى امر لم ينتبه اليه مؤرخو الشرق وهو انه كان لهذه الثورات او لأكثرها كثورة استاذ في سنة ٧٦٧ او عطا سنة ٧٧٨ صبغة دينية قد تستدرج القارىء او الباحث الغير المدقق الى الخطاء

في الحكم عن اسبابها الحقيقية ، الا انا نعلم الآن ان هـذه الصبغة لم تكن الا حجاباً شفافاً يحجب ما وراءه من العوامل السياسيـــة والاقتصادية التي هي السبب الحقيقي لهذه الثورات كما بينا ذلك ثم لا بد من الاشارة ايضاً الى ان عـدد الحركات الثورية ضد السلطة الحاكمة او عمالها في البلاد اخـــذ يزداد في خلافة المتوكل على الله ٨٤٧ – ٨٦١) وابنائه اي من يوم ظهر الضعف الادبي والعجز المالي في دولة بني العباس ، فكان لا بد لقمع هذه الثورات ورد غارات العدو على الحدود الشمالية والغربيـة من جيش كبير منظم ومال كثير يقوم بنفقات هذا الجيش الذي اصبح اكثره من ايام المأمون من الترك والديلم والمغاربة وغيرهم من الاقوام الغربيـة المضمرة العداء للامة العربية وخلفائها . زد الى ذلك نفقات القصور والمدن الجديدة التي اخذ ينشئهـــا خلفاء بني العباس ووزراءهم في بغداد وسامرا ، والمال في ذلك الوقت عزيز صعب المنال حتى على اصحاب السلطة المركزية لاسباب اهمها ان عملاء هذه السلطة في الاقاليم البعيـدة صاروا يحتفظون بقسم كبير من الضرائب لانهم اخذوا يشعرون بضعف السلطة المركزية وعجزها عن معاقبتهم لو ارادت ذلك ، ولما لم يكن لهم زاجر من انفسهم ولا من الحكومـة التي كانت تقيمهم في البلاد بالرشوة والتزلف كان الشعب مضطراً ان يرد شرهم بالقوة كما حدث سنة ٨٠٧ في سمرقند حين خرج على عامل الخليفة المستبد الظالم وقتله شر قتلة او كما فعل الشعب مرات عديدة في مصر والعراق وارمينيا واذربيجان التي كانت تئن تحت نير اولئك العتاة الظالمين .

يكفيك ان تقرأ بضع صفحات من تواريخ البلاذري واليعقوبي وابن الأثير لترى بنفسك كم كانت تعاني في ذلك الوقت اي في اواخر العصر الثامن واوائل التاسع سكان الأمصار المذكورة من ظلم الحكام وجباة الاموال وكم من مرة كانت مضطرة ان تلجأ الى السلاح لتخفف عن نفسها وتضع حداً لاستبداد عمال الحكومة فكان لايمضي عام حتى تتحرك البلاد كما يعبر عن ذلك اليعقوبي والبلاذري في كلامهما عن سكان ارمينيا واذربيجان وبالاخص عن الضارية والخزر النازلين على شواطئ بحر الخزر او بحر الكاسبي الغربية وغيرهم من خوارج القوقاس والعجم وتشق عصا الطاعة على السلطة الحاكمة فتضطر هذه الى حشد الجيوش وصرف الاموال الكثيرة لتعيد الأمن الى نصابه ولولا اختلاف هؤلاء الأقوام في الغاية والوسائل وتفرق كلمتهم لما استطاع عمال الدولة العباسية ان يقيموا في تلك البلاد شهراً واحداً ولاتسلخت البلاد من ذي قبل.

اخذت حالة السلطة المركزية تزداد حرجاً واخذ امرها يسير الى الزوال يوم صار عمالها من العرب ينحازون الى الخارجين عليها او يحرضونهم على الخروج وشق عصا الطاعة عليها لحزازات او اغراض شخصية او لأنهم شعروا كما قلنا بضعفها وقرب اجلها فاصبحوا يرون اقرب الى مصالحهم الشخصية او العائلية ان يصطنعوا سكان البلاد المذكورة والمتنفذين فيها وعائلاتهم ليستفيدوا منهم متى سقطت دولة بغداد او متى قرروا هم انفسهم ان ينسلخوا عنها ويؤلفوا امارات او سلطات مستقلة كأمارات بني شيبان وبني مزيد والأمارة الكسروانية التي قامت بعد ذلك على انقاض الخلافة

العباسية في القوقاس وما وراءه مما ادى الى ظهور طبقة خاصة في ارمينيا واذربيجان تعرف بطبقة (المتغلبين) وما المتغلبون الا بعض عمال بني العباس في تلك البـــلاد او رؤساء بعض القبائل الذين انشقوا عن خلفائهم الشرعيين وحاولوا ان يستقلوا كل الأستقلال او بعضه ليبدأوا في تاريـــخ الأسلام دوراً جديداً يذكرنا بدور الاقطاع في اوروبا في الاجيال الوسطى فكان عمل هؤلاء الامراء المستقلين داعياً لغيرهم من اصحاب النفوذ في البلاد والامم المغلوبة على امرها ان يحذوا حذوهم ويجربوا او ينشقوا عن الخلافة العباسية فكان اول من فعل ذلك وحاول ان ينشر لواء الحرية على جبال قراطاغ بابك الخرمي او باباك الفارسي كما هو اســـمه الحقيقي في لغة قومه .

# بابك وتعاليمه

●

تختلف حركة بابك الخرمي واشياعه من غيرها من الحركات الثورية السابقة بأمرين خطيرين : تنظيم الحركة والغاية التي كانت ترمي اليهـــا . اما تنظيم الحركة فيظهر اولاً في نجاحها وسرعة انتشارها وثبات اصحابها امـام عدوهم المسلح نحو اثنين وعشرون سنة ثم من اقبال الناس عليها اقبالاً غريباً لم تعهده في تاريخ غيرها واشتراك عدد كبير فيها من الامم المجاورة لبلاد الفرس كالكرد والارمن والروم وغيرهم من قبائـل ما وراء القوقاس الصغـيرة اشتراكاً فعلياً يدل عـلى اتفاق سابق وشعور قوي بالمصلحة العامة قلت ان بابك واتباعه ثبتوا أمـام جيوش خلفاء بغداد اكثر من عشرين سنة كانوا يدافعون فيها عن مبادئهم وأرواحهم مدافعـة الابطال المستميتين في حب بلادهم وحريتهم وانهم وان غلبوا في آخر الأمر فقد تمكنوا قبل ذلك من ضرب عدوهم الألدّ ضربـة كادت تقضي عليه وتأتي عـــلى قواه المادية والمعنوية اذ من المحقق عنـد اصحاب التاريخ ان ضعف الدولة العباسية وبوادر سقوطها اخذت تظهر في اواخر خلافة المعتصم ٨٣٣ — ٨٤٢ - وهو أحد خلفاء بني العباس العظام بلا جدال وكعبة شعراء عصره الذين بالغوا

في تعظيمه ووصف الظفر الذى ناله في حروبه العديدة بمساعدة قائده التركي العظيم حيـــدر بن قاووس الافشين الذي لو لاه ولولا عساكره التركية لسقطت دولة بني العباس في حروبهـا مع بابك لا محالة .

لا ريب في ان حركة بابك كانت نتيجة تلك العوامل الاجتماعية والسياسية التي ظهرت في اواخر الجيل الثامن وأوائل الجيل التاسع في مملكة بنى العباس عامـــة وفي اذربيجان خاصة والتي كان من تأثيرها ان زالت هيبة السلطة الحاكمة او كادت تزول في نفوس الامم الغربية كالفرس والترك او الغير مسلمة كالقبط والسريان والارمن وفي عيون العرب انفسهم وسقطت منزلتها الادبيـة الى درجة اصبح معها رعاياهـا لا يقيمون لها وزناً ولا يحسبون لقوتها حساباً كما يظهر ذلك من اقوال بعض مورخي العرب ومن تعداد الثورات والغرض الذي اخذت ترمي اليه وهو الانفصال التام عن جسم الخلافـة العباسية وتأليف ممالك او إمارات مستقلة من نوع مملكة بني امية في اسبانيـــا وأمارة الاغالبة في شمال افريقيا او الجمهورية التي حاول بابك ان يخلقها في جبال قراطاغ من الشعوب الايرانية التي عجز خلفاء بني العباس عن ادماجها في الامة العربيـة ودينها او عن ايجاد طرق للتفاهم بينها وبين الامة الغالبة .

لدينا من الادلة ما يكفي لأن نفرض ان بابك واتباعه بدءو يفكرون بالخروج عـلى خلفاء بغداد ويهيئون للثورة اسبابها منذ أمد بعيد وانهم كانوا ينتظرون الفرص المناسبة للشروع في العمل واعلان الحرب على خصمهم الاكبر نستدل على ذلك من المخابرات

السرية بين بابك وامبراطور بزنطية تيوفيل ٨٢٩ – ٨٤٢ ) التي نرجح انها ابتدأت قبل الثورة فقد ذكر بعض المؤرخين أن بابك ذهب بنفسه الى عاصمة الروم او الى الحدود البزنطية الجنوبية ليدعو امبراطورها الى الاشتراك معه في حرب عامة يعلنونها على عدوهم المشترك لكنه يظهر لنا ان لا صحة لهذا الخبر لانه يصعب علينا ان نصدق ان بابك زار بزنطية ايام الحرب التي نرجح انها نشبت في صيف سنة ٨١٧ اما انه زارها قبل اعلان الحرب فلا دليل على ذلك الا انه يمكننا ان نقدر استناداً على الحوادث التي سنأتي على ذكرها بعد ذلك ، ان بابك بعد ان عزم على الخروج على خليفة بغداد أطلع بواسطة احد رسله صديقه وحليفه الطبيعي امبراطور الروم على عزمه والغرض من خروجه وطلب اليه ان يمده بجيوشه او ان ينضم اليه بنفسه في هذه الحرب العامة التي كان يرجى منها خير لهما جميعاً ان هي انتهت بسقوط عدوهما الالد . على كل حال لا ريب في ان بابك كان يستطيع ان يقوم في حروبه مع خلفاء بغداد على مساعدة البزنطيين وبالعكس فنحن نعلم انه لما ساءت امور بابك بعد عشرين سنة صرفها في مقاومة اعظم جيوش واضخم دولة في ذلك العصر برز لمساعدته امبراطور الروم وحاول بمناوراته على الحدود العربية ان يصرف قسماً كبيراً من جيش الخليفة المرابط في اذربيجان عن بابك ونعلم ايضاً ان فئة كبيرة من اصحاب بابك حاربت سنة ٨٣١ تحت قيادة رجل ايراني يعرف بتيوفوب في جانب البزنطيين وان قسماً كبيراً من جيش بابك اجتاز الحدود البزنطية بعد ما اصاب بابك من الفشل

ونزل في ارض الروم على الرحب والسعة وهناك تنصر .

يستدل من هذا ان صداقة قديمة قوية كانت بين بابك وامبراطور الروم ان لم تكن معاهدة حربية سرية . إلا ان بابك لم يكتف بهذه الصداقة وحاول ان يستميل الى دعوته جيرانه الاقربين اي الكرد والارمن او على الاقل ان يضمن حيادهم في الحرب المقبلة على شروط يتفق معهم عليها قبل الحرب لكنه لم يوفق الى ذلك تماماً وذلك لأن الارمن أبوا أن يدخلوا في المحالفة التي دعاهم اليها إلا فئة صغيرة منهم كانت تقيم في مقاطعة سبونياد ( صهيون ) فأنها انضمت اليه عن طيبة خاطر وارتبطت معه برباط متين وثق عراه زواج بابك بابنة اميرهم وقائد جيشهم اما سائر الامة الارمنية فأنها رأت أقرب الى مصالحها القومية ان تنتهز هذه الفرصة المناسبة لتصلح امورها التي تضعضعت كثيراً سنة ٧٧٢ اصابها من الفشل والخسارة في حروبها الاهلية ومع عمال خلفاء بغداد فقررت لذلك ان تلزم الحياد خوفاً من ان تكون نتيجة الحرب بين ثوار قراطاغ وخليفة بغداد وبالاً عليها إن هي انحازت الى جانب الاولين ، ولولا هذا الحذر ولولا هذا الحياد من طرف اكثر بطارقة الارمن لكانت نتائج الحرب غير التي نعرفها .

أما اشتراك الكرد في هذه الحرب فقد كاد يكون عاماً ، كما يظهر من اقوال المؤرخين الذين ذكروا ان عصمت امير مرنك ورؤساء القبائل الكردية في همذان وكرمنشاه وغيرهما من المقاطعات الشرقية قد انضموا الى دعوة بابك غير مكرهين ولا مساومين .

قال اليعقوبي وهو اعرف المؤرخين باحوال تلك البلاد :

... « وكان محمد بن البعيث قد شايعه وعصمت الكردي امير مرندا في طاعته » وذكر غيره ان الاكراد كانوا يدخلون في حركة بابك افواجاً ، وهذا يدل على انهم كانوا مرتاحين الى عمله وميالين الى مبادئه الثورية الجديدة ، وكذلك القول في الباطنية او الاسماعيلية واكثرهم من العجم والكرد فانهم كانوا ايضاً في جانب الخرمية يمدونهم بالمال والنصيحة والرجال ، كما يشهد على ذلك ابو منصور البغدادي صاحب كتاب الفرق بين الفرق والفرقة الناجية منها » .

فأنت ترى مما ذكر ان اكثر الامم الايرانية المقهورة في ارمينيا واذربيجان من خراسان في الشمال الى العراق العربي في الجنوب اخذت تتألب على دولة بني العباس وتعمل جهاراً على اسقاطها ، وقد زاد الطين بلة وجعل الخطر على حياة الدولة المذكورة قاب قوسين او ادنى هو مالئة قائد الجيش الخليفي حيدر بن فاووس الافشين لبابك وحلفائه من العجم والاتفاق معهم سراً على تحرير الامم الايرانية والتركية المقهورة وجعلها امارات وسلطنات مستقلة تحت ادارة رجال منهم .

هذا اذا صح ما عزي من الخيانة الى القائد المذكور الذي طالما اقال الدولة العباسية من عثرتها وشتت شمل اعدائها في الخارج والداخل ونظم جيوشها ، الا انه يظهر من المحاكمة العلنية التي اقيمت على الافشين بعد ان وضعت حرب بابك اوزارها ان تهمة الخيانة التي اتهم بها لم تكن عارية عن الصحة فقد تبين من المحاكمة المذكورة التي امر باجرائها المعتصم بالله ٨٣٣ ـ ٨٤٢ وانه كان للافشين ضلع مع بابك او مع حليفه مازيار صاحب طبرستان وانه حقيقة كان ينوي

سلخ البلاد التركية او قسم كبير منها عن الخلافة العباسية ليجعل منها امارة او سلطنة مستقلة تحت ادارته ، قال مازيار في جلسة من جلسات المحكمة العرفية المذكورة ان حيدر الافشين كتب اليه يقول : لو اتبعتني لاستطعنا ان نقضي على الاسلام ونرجع الى ديننا الفارسي القديم ! .

يؤيد ذلك ما ذكره اليعقوبي في تاريخه عن خروج منكجور على الخليفة قال :

وكان اول سبب حبس الافشين ان منكجور الفرغاني خال ولد افشين وخليفته باذربيجان خلع هناك وجمع اليه اصحاب بابك وسار الى ورثان فقتل محمد بن عبيد الله الورثاني وجماعة من اولياء السلطان .

ان لا ريب في خيانة اعظم قوادجيش الخليفة لولي نعمته الذي غمره باحسانه ورفع مرتبته ، ولولا ذلك ولولا ان الخليفة رأى بعينه ادلة الخيانة لما امر بمحاكمته ولما استغنى عنه بتلك السهولة التي يذكرها المؤرخون وهو في ذلك الوقت اشد الناس احتياجاً اليه والى اعوانه من الترك ، وعليه صح ما ذكرناه قبل ذلك عن تشعب المؤامرة ضد السلطة العربية واشتراك اكثر الامم المغلوبة فيها ، وهذا يدل على خطورة العمل الذي اقدم عليه بابك وحرج مركز الدولة العباسية في ذلك الدور من حياتها وقد زاد في حرج هذا المركز انه كان بين المتآمرين بعض زعماء العرب ممن اعمت المصالح الشخصية او العائلية قلوبهم وانستهم او جعلتهم يتناسون ان الغاية الكبرى من هذه المؤامرة هي سحق السلطة العربية في تلك البلاد

والقضاء على الاسلام واهله ، واعظم من ذلك في الغرابة وادل ضعف العاطفة القومية في قلوب عرب ذلك العصر وتغلب مصالح الفرد او العشيرة على مصالح الامة هو ماذكره اليعقوبي في تاريخه من ان عمال الخليفة الكبار في اذربيجان هم الذين اوعزوا الى بابك بالخروج على سلطانهم وولي نعمهم وحرضوه على العصيان واعدين اياه بالمساعدة وان بين المحرضين كان حاتم بن هرثمة زعيم تلك العائلة العربية التي عرفت في التاريخ بخدماتها العديدة للخلافة العباسيـــة والامة العربية وابن هرثمة هذا كان والياً للخليفة على ارمينيا واذربيجان حيث ترك آثاراً محمودة قال المؤرخ المذكور :

« واشتدت شوكة بابك وكان محمد بن البعيث قد شايعه وعصمت الكردي صاحب مرند في طاعته ، وقال في موضع آخر ان محمد بن البعيث : انحاز الى بابك وما مثل حاتم بن هرثمة ومحمد بن البعيث الا كمثل غيرهما من عمال الخليفة في ارمينيا واذربيجان ورؤساء بعض القبائل العربية هناك من حيث عدم الاخلاص للخلفاء بغداد وحكومتهم وتقديم المصلحة الخاصة على المصلحة العامة كأنهم كلهم اصبحوا لا يفهمون ان عزهم وسعادتهم بل وجودهم في البلاد المذكورة كانت تتوقف على طاعتهم لخلفائهم وهيبة الحكومة المركزية وقوتها المادية والمعنوية ، وليست هذه بالمرة الاولى التي تغلبت فيها روح العشيرة ومصالحها الجزئية على روح الامة ومصالحها الحيوية العامة فقد ذكر التاريخ ان نصر بن سيار عامل خلفاء بني امية على خراسان وآسيا الوسطى اهاب قبل مئة سنة مضت على ظهور الأسلام برؤساء قيس واليمن ان القوا سلاحكم ياقوم ووحدوا كلمتكم في ديار الغربة وامام

عدو قوي عنيد يريدبكم الشر وبدولتكم الأذى فلم يكن من يسمعه او يفقه لحوادث ذلك العصر معنى فكان من امر العرب في تلك البلاد ومن امر اسرتهم العربية ما هو معلوم عند الجميع .

هؤلاء هم حلفاء بابك وهؤلاء هم المخلصون او الممالئون له ولدعوته الذين كان يستطيع ان يعتمد عليهم في مقاومته لسلطة بني العباس اما الظروف المناسبة التي رافقت هـذه الحرب الطويلة او سبقتها وربما ساعدت على الاسراع في اعلانها فكثيرة ايضاً نقتصر على ذكر بعضها فمنها اشتغال جيش الخليفـة المأمون في ذلك الوقت بتدويخ الثورات التي استعرت نارهـا في العراق ومصر وبلاد العرب ورد هجمات جيش الروم الذي اجتاز الحدود بعد ان فتح وهدم قلعة زبطرا سنة ٨٢١ واخذ يتغلغل في دار الأسلام وبالاخص في ارمينيا الممالئة له التي كاد يحتلها كلها وصار يتصرف بها وبأمرائها كما كان يتصرف ببلاده وسكانها واهم من ذلك ان الجيش الرومي اصبح بعد ان احتل ارمينيا ، مجاوراً لبلاد بابك فصار في وسعه ان يمده برجاله ونصائحه ولعل هذا الامر هو الذي حمل امبراطور الروم على الزحف على ارمينيا واحتلالها . وهناك فرصة اخرى لا بد ان بابك استفاد منها وهي خروج حاتم بن هرثمة على عامل الخليفة في ارمينيا واذربيجان انتقاماً لأبيه هرثمة الذي قتله المأمون غيلة سنة ٨٢٠ ومن منا لا يعرف منزلة هرثمة بين العرب وما كان له من النفوذ بينهم وعلى سياسة الدولة .

اما ان بابك قد استفاد من هذه الثورة فهذا امر طبيعي وقد اشار اليه المستشرق اليهودي ( ويل Weil ) في تاريخه حيث قال : ان بابك قد استفاد من هذه الحادثة بان صور المأمون خائناً لمصالح

الفرس ، ثم اضف الى ذلك ان خروج حاتم بن هرثمة على الخليفة سهل خروج غيره من العرب المرابطين في تلك البلاد او من اهل البلاد الناقمين على حكومة بغداد والشعب العربي وبينهم بابك واشياعه كما اشار الى ذلك اليعقوبي في كلامه الذي ذكرناه سابقاً والذي يفهم منه ان ثورة حاتم بن هرثمة كانت من دواعي الاسراع في حركة بابك لا من اسبابها لأن استعداد بابك للخروج على بغداد واعلان الحرب على عامل الخليفة في اذربيجان واران وارمينيا كانت سبقت كما ترجح ثورة حاتم .

نرى مما ذكر ان حلفاء واصدقاء بابك كانوا كثيرين وان الظروف كانت في بادىء الامر موافقة لحركته واكثر الشعوب المغلوبة وعلى الاخص الطبقات السفلى منها تميل الى دعوته وتدخل فيها راضية مملوءة امالاً بحسن عاقبتها وكانت تحارب تحت لوائه الحمراء مستقتلة .

قال ابو منصور البغدادي . ان عدد الخرمية الذين انضموا الى جيش بابك في اذربيجان والديلم فقط بلغ ثلثمائة الف نفس وذكر الطبري ان جماعة كثيرة من اهل الجبال من همذان واصبهان وماسبذان ومهرجان قد دخل مذهب الخرمية وانهم تجمعوا فعسكروا في عمل همذان ويستفاد من مصادر اخرى ان عدد البابكيين لم يكن قليلاً في ولايات ايران الجنوبية وفي العراق وان الحركة البابكية اخذت تنتشر انتشاراً سريعاً بين علوج تلك البلاد اي بين العاملين في اراضي غيرهم بالاجرة .

وهنا يجدر بنا ان نتساءل عن الاسباب التي حببت الى هذه الطبقات الدخول في الدعوة البابكية والاقبال على مساعدتها

بالنفس والنفيس ؟ فنجيب على هذا السؤال ، وذلك استناداً على اقوال كتبة المسلمين عن حركة بابك وتعاليمه. ان اهم العوامل التي ساعدت على نشر دعوته بين الطبقات والامم المذكورة لم تكن دينية ولا سياسية بل اجتماعية واقتصادية تؤيد ذلك افعال بابك واشياعه يوم كانت القوة في ايديهم ثم برنامجهم او بروغرامهم الذي لا نجد فيه اثراً يذكر للعوامل الدينية او السياسية .

ذكر بعض مؤرخي العرب ان البابكيين كانوا يعاملون اسراهم ولا سيما العساكر منهم بالحسنى فيكانوا غالباً يطلقون سراحهم على شرط ان لا يشتركوا مرة اخرى في قتالهم وذكروا انهم كانوا يحسنون معاملة نساء اعدائهم و ولادهم ممن كان يقع في ايديهم ايام الحرب حتى لو كانوا من طبقة العليا والقواد ذكر الطبري انه لما اسر بابك وجيء به مع اخيه الى بغداد للمحاكمة او بالاحرى للتعذيب كانت النساء اللواتي اطلقهن قبلاً من الاسر يضربن على وجوههن ويبكين « حزناً وشفقة عليه فلما سألهن حيدر الافشين عن سبب بكائهن اجبنه بان بابك ( كان يحسن الينا ) اما عن معاملة بابك واشياعه لاصحاب الدين الاسلامي ونظرهم الى الدين نفسه فعندنا ادلة كافية تشهد بتساهلهم الديني ومجاملتهم لاصحاب الدين فقد ذكر ابو منصور البغدادي وهو عدو البابكيين الألد، ان بابك واتباعه — واكثرهم على دين زرداشت لم يكونوا يمنعون المسلمين المقيمين بينهم من التمسك بدينهم واقامة شعائرهم علناً بل كانوا يعدونهم على بناء مساجدهم « حيث كانوا يؤذنون »

كل ذلك يحملنا على الاعتقاد في ان الغرض من الحركة البابكية

لم يكن مقاومة الاسلام وذويه ولا مقاومة العرب كأمة فاتحة مفتصبة كما كانت الحال في اكثر الثورات السابقة لحركة بابك في بلاد العجم بل محاربة ذلك النظام الاجتماعي الذى كانت تئن تحته الطبقات السفلى من جميع الامم التي كانت تتألف منها وقتئذ دولة بني العباس حتى الامة العربية نفسها وان لم يشترك ابناء هذه الامة فعلاً في الثورة البابكية . نعم ان بابك واتباعه كانوا يرمون الى هدم ذلك النظام المستند على اصحاب الاملاك ورؤساء الدين والجيوش المسخرة المأجورة وإبداله بنظام جديد ليس فيه طبقات ولا نزاع مستمر بينها ولا ظالم ومظلوم ولا غني وفقير ولا سيد وعبد ولا كبير ولا صغير بنظام مبني على العدل والاخاء والمساواة.

انا لنأسف جداً ان مؤرخي الفرس والعرب لم يحفظوا لنا برنامج بابك الاجتماعي بحرفه الواحد او أن الشيء القليل الذي حفظوه لا يشفي غليلاً ولا يحل الألغاز والصعوبات التي يجدها الباحث في تاريخ الحركة البابكية وغايتها هذا إذا فرضنا ان اصحاب التاريخ، وكلهم من اعداء البابكيين ومذهبهم ، لم يحرفوا بروغرامهم لأغراضهم الجدلية وكرههم الديني لهم . على انه يمكننا استناداً على هذه الاخبار ومصادر اخرى غير جدلية ان نبرهن على صحة ما قلناه قبلاً وهو أن بروغرام بابك ومازيار وسائر اشتراكي اذربيجان وطبرستان كان يحتوي على مسائل اجتماعية واقتصادية فقط يمكن حصرها في مسألتين اساسيتين وهما :

١ - نزع الاراضي الواسعة من اربابها الذين اغتصبوها سابقاً من الفلاحين او الدولة وتوزيعها مجاناً على المزارعين المحتاجين اليها.

٢ ــ تحرير الامرأة الشرقية أو الايرانية على الاقل من عبوديتها الأبدية واعطائها اهم ما للرجل من الحقوق .

اذا صح ذلك ، ولا نراه الا صحيحاً كان بروغرام البابكيين الخرميين الاجتماعي عين بروغرام شيوعي ايران في العصر السادس للمسيح المعروفين بالمزدكيين نسبة الى صاحب دعوتهم ومؤسس مذهبهم مزدك ، وعليـــه يكون بابك واصحابه تلامذة أو اتباع مزدك ولو اختلفوا ، كما سنرى في بعض نقط طفيفة اقتضاها الزمن والوسط الاجتماعي الجديـد . وقد انتبه الى هذه الصلة المعنوية بين شيوعي العصر السادس والعصر التاسع معاصرو بابك واكثر من كتب عن حركته ومبادئـــه من مسلمي الاعصر المتأخرة كأبي منصور البغدادي والمطهر المقدسي والغزالي وغيرهم ممن كتب في البدع الاسلامية والنحل الفلسفية قال ابو منصور المذكور : وان الخرميين كانوا على مذهب المزدكين والذي يظهر لي ان ليس فقط بابك وأشياعه اخذوا مذهبهم عن اخوانهم في الجنس والغاية اصحـــاب مزدك بل سائر تقدمي فارس واذربيجان كالمازيارية والجاويدانية وغيرهم ممن عرفوا باسماء زعمائهم مع اتفاقهم في المسائل الجوهرية مما يدل على ان آراء مزدك لم تمت بموته وموت الالوف من اشياعه الذين كانت دولة بني ساسان تتعقبهم في كل البلاد الخاضعة لها بل بقيت حية في صدور كثيرين من تلاميذه الذين سلموا من القتـل ولجأوا الى جبال اذربيجان وأران مصدر الحركة المزدكية وعش كل الحركات الفكرية التي ظهرت في ايران من يوم عرفها التاريخ بل ملجأ المضطهدين لدينهم او مبادئهم الاجتماعيـــة قبل

مزدك وبابك .

يثبت ذلك ما ذكره صاحب معجم البلدان من ان فئة من اصحاب مزدك اختبأت بعد محنته المعروفة في جبال اذربيجان المنيعة حيث ظلت تحافظ على مبادئها الى ايام بني سلجوق وخلفائهم الافريين لأنها وجدت هناك وسطاً مبالاً اليها لم تلبث ان انتشرت فيه ونمت بعيدة عن عين العدو وحريصة على مذهبها الاشتراكي حرصها على اجدادها المقدسة وتقاليدهم وآدابهم القديمة .

بقيت اراء مزدك تنتشر خفية بين سكان اذربيجان والبلاد المجاورة لها وتستميل العناصر الغير الراضية عن حالتها الاجتماعية وهذه الآراء بقيت منظمة وفي ايدي اناس خبيرين بطرق الدعوة يتناقلها بعضهم عن بعض الى ان وصلت الزعامة الى رجل يدعى جاويدان بن سهل المتوفى ٨١٦ ) استاذ بابك وصديقه الاعز فسلمه قبل وفاته زعامة الحركة في اذربيجان لما تفرس فيه من الاستعداد الطبيعي للرئاسة وقوة الارادة والاخلاص للدعوة الى غير ذلك من الصفات التي يحتاج اليها كل زعيم كبير . وقد برهن بابك بما ادخله على حزبه من الترتيب وابداه من حسن الادارة والثبات عند المحن مدة اثنتين وعشرين سنة امام عدو اقوى منه عدداً وعدداً انه ذاك الرجل الذي كان تنتظره الامم والطبقات المظلومة المغلوبة على امرها ليحررها من العبودية الطويلة ويحقق احلام مزدك الحلوة .

وهنا سؤال آخر لا بد من الاجابة عليه بما امكن من الايجاز وهو ما هي الاسباب التي ساعدت على نشوء الحركة في بقعة من

الارض معلومة وحفظها فيها عدة اجيال ؟ لا شك ان هناك اسباباً معقولة كما كل حركة اجتماعية ظهرت في تاريخ الاسلام او غيره وما هـــذه الاسباب الا تلك الشروط الاجتماعيـة او بالاحرى الاقتصادية التي كانت متوافرة في تلك البقعة من الارض منذ اجيال بعيدة والتي كانت تمدّ المبادىء الاشتراكية بالغذاء الكافي وتضطرها احيانا الى الانفجار اما اهم هـذه الشروط فهي كما يظهر لي حالة الفلاحين في تلك البلاد وعلاقتهم باصحاب الاراضي .

ان ما نعلمه من أمر نظام الاراضي في اذربيجان وأران يحملنا على الاعتقاد ان كل الاراضي في تلك البلاد او اكثرها كانت تخص اشخاصا معدودة من طبقة الدهاقين او الأرباب والخانات كما يسمونهم اليوم وان هذه الطبقة من الناس كانت تستغل اراضيها بواسطـــة الفلاح الفارسي او غيره من عاوج البلاد وأسرى الحرب وتراقب اعمالهم بنفسها من وراء جـدران قصورهم التي كانت تعد بالألوف وتعطي اكثر بلاد العجم ولا سيما المقاطعات الغربية والشمالية منها فكان الفلاح يعتمل اراضي سيده كالرقيق لا يأخذ على تعبه مكافأة تذكر ، بل كان في ايام بني ساسان رقيقاً بمعنى هذه الكلمة الحقيقي لا يملك شيئاً حتى حق الزواج او التمتع بامرأته الا اذا سمح له بذلك سيده كما كانت الحال في روسيـا الى سنة ١٨٦١ وفي اوروبا في عصر الاقطاع وسلطة الملاكين ، وقد رأينا ان دخول تلك البلاد تحت الحـكم العربي لم يغير الا الشيء القليل من حال الفلاح الفارسي الاقتصادية الا في اوقات معلومة — بقيت على ما كانت عليه من ايام بني ساسان ، وسبب ذلك ان السلطة العربية على الاطلاق لم

يكن يهمها من امر هؤلاء الاعاجم وغيرهم من الامم المغلوبة الا تأدية ما عليهم من الضرائب في الوقت المعين وهذ ما دعاهم ، على مايظهر ، ابقاء اكثر الاسر القديمة المالكة والعائلات الكبيرة في وظائفها القديمة لانها كانت في نظر الدول العربية اقدر من غيرها من الموظفين على جمع المال وتأديته الى الحكومة في حينه . ثم نحن نعلم ان اذربيجان والبلاد المجاورة لها كانت من تلك المقاطعات التي حافظت اكثر من غيرها من الاقاليم الفارسية على نظامها السابق ، اي على النظام الساساني المبني على تقسيم الناس الى طبقات معلومة لكل منها حقوقه وواجباته وان البلاد المذكورة ظلت متمسكة بهذا النظام الى سقوط الدولة العربية بل ابعد ذلك كما يستفاد مثلاً من كلام اليعقوبي الذي زار بنفسه هذه البلاد وعرف احوالها اكثر من غيره من مؤرخي العرب ، فقد ورد في تاريخه ان طبقة العلوج وهم الفلاحون الذين لايملكون اراضي ، كانت كثيرة العدد في ذلك الاقاليم وان حالتهم كانت تسوء يوماً عن يوم بما كان يضطرهم مراراً الى الخروج على ساداتهم وتأليف عصابات — وما كان اكثرها في ذلك العصر — للنهب والقتل ، وزاد على ذلك ان حالة الفلاحين الاحرار لم تكن باحسن من حالة من ذكرنا من اخوانهم ولا سيما بعد ان اصبح جمع الخراج والمكوس وسائر الضرائب في ايدي ماتزمين من اصحاب الوظائف والنفوذ في البلاد يتقاضونها بجميع الطرق ولا يراعون في جمعها الا مصالحهم وشهواتهم الشخصية .

ذكر صاحب معجم البلدان ان الحجاج بن يوسف عامل الخليفة عبدا ملك على الشرق كان يجمع من مقاطعتي فارس

والأهواز ثمانية عشر مليون من الدنانير فقط فصاروا يجمعون منها بعد اربعين او خمسين سنة اثنين وثلاثين مليوناً ثم اخـــذت هذه الضريبـــة تزداد الى ان بلغت ، حوالي النصف الاول من العصر التاسع اي قبل ظهور بابك واشياعه بعشرين او ثلاثين سنة ، خمسة وثلاثين مليوناً التزم جمعها وتأديتها الى بيت المال فضل بن مروان وزير الخليفة المتوكل ومعنى ذلك ان الضرائب التي كانت تؤخذ من تينك المقاطعتين قد تضاعفت في مئة سنة مع بقاء الارض على حالها فتأمل اما كيف وممن كانت تؤخذ الضرائب فأننا نترك الجواب على ذلك الى القارىء .

اذا تدبرنا كل ذلك ادركنا اسباب تمركز الحركات الثورية في اراضي اذربيجان واران الخصبة ولماذا كان المصلحون الأيرانيون من مزدك الى بابك يلحون في طلب نزع الاراضي من ايدي الاقلية وتوزيعها على الفلاحين بالقسط وما ذلك الا لانهم ادركوا ان تحرير الاراضي تحرير الفلاح نفسه ووضع حد لاستغلال اتعابه .

هذه هي النقطة الاولى المهمة في برنامج البابكية ، اما النقطة الثانية وهي السعي وراء تحرير المرأة الايرانية فليست الا نتيجـــة للنقطة الاولى ووجودها في بروغرام الخرمية دليل قاطع على انه لم يطرأ على حال الامرأة الايرانية تغيير يذكر من يوم ظهور مزدك وربما من يوم زرادشت الذي بدأ يدافع عن حقوقها المهضومـــة ويطالب بحريتها . نعم ان الكتبة المتأخرين واكثرهم من الناقمين من مزدك وبابك واشياعهما ، حاولوا ان يؤولوا هذا الطلب الصريح العادل تأويلاً لا يتفق مع غرض المصلحين المذكورين مما يدل اما على

سوء نية واما على عدم فهمهم معنى الحرية التي كان يطلبها مزدك وبابك للامرأة ، فقد خيل لبعض الناس ان المصلحين المذكورين يقولان باباحة النساء ، وهذا غير صحيح ، اذا اطلقنا الكلام ولم نقيده بشروط ذكرها بعض كتبة العرب كما سنرى

قال بلعاني المؤرخ الفارسي ومختصر تاريخ الطبري : « ان مزدك نسخ الزواج ( الشرعي ) وملكية الاراضي وكان يقول ان خالق المسكونة قسم الاشياء بين الناس بالقسط فلم يعط احداً اكثر من غيره ، ولهذا لا بد من نظام يتساوى فيه عدد النساء ومقدار الاراضي التي يملكها كل شخص ويكون من مقتضاه ان من يملك اراضي واسعة لا يستطيع ان يقول اني لا اعطي منها شيئاً لغيري ومثله من يملك عدة نساء لأن النساء مشاعة ( بين الناس )

ونقل ابو منصور البغدادي عن غيره بلا تدقيق ولا تحقيق ان للبابكية في جبلهم ليلة عيد يجتمعون فيها على الخمر والزمر وتختلط فيها رجالهم ونساؤهم فاذا اطفئت سراجهم ونيرانهم انقض منها الرجال على النساء وهذا يشبه ماتقوله الشهرستاني وغيره من الكتبة المتأخرين ، الذين لم يروا ولم يسمعوا الا المزدكيين ولا البابكيين بل كانوا يرددون اقوال من سبقهم من الكتبة المتغرضين نذكر منهم ابا الفرج العبري ( ١٢٨٦ ) الذي أورد في كلامه عن سنباط ابن سهل احد بطاركة ارمينيا الذي قبض على بابك وسلمه لافشين بعد ان خدعه وأهانه وهتك حرمة امرأته وامه واخته « ان بابك الملعون « كذا » كان يفعل بالناس اذا أسرهم مع حرمهم » وهناك فئة اخرى من الكتبة وجلهم من المتأخرين البعيدين عن

زمن الحركة البابكية كانوا يحشرون اشياع بابك « بين اللصوص واصحاب الفتن وقطاع الطريق ويختلقون عنهم مثل هـذه الاعمال ويطلقون عليهم هذه الالقاب اما عمداً ليثيروا عليهم الرأي العـام والجهلة واهل التعصب الديني والقومي واما لجهلهم الحقيقة وتأويلهم بعض عادات القوم تأويلاً يتفق مع ما ألقوه من النظر الى الأمرأة في أعصر الجهل والانحطاط الأدبي. ومن الاسباب التي استدرجت بعض الكتبة المتـأخرين الى الخطأ في الحـكم على آداب البابكيين واخلاقهم انهم نسوا او تناسوا ان بابك واتباعه كانوا يدينون بدين زرادشت مع تغيير ضعيف طرأ عليه تحت تأثير النصرانية والاسلام. وان هذا الدين لم يكن ليمنع الزواج بين الأخ واخته كما كانت الحال عند البطالسة في مصر مثلاً وبين الأقربين ممن حرم الاسلام الزواج بينهم ولما كان هـذا النكاح « رجساً من عمل الشيطان » في نظر المسلمين كانوا ينسبونه دائماً الى التهتك والخلاعة والمرح حتى ان بعض كتبة العرب ومن اخذ عنهم من علمـــاء اوروبا . اشتق كلمة خريسين — وهو اسم صاحب بابك المتغلب عليهم — من كلمة خرم وهو المرح في الفارسية وهذا غير صحيح لان الكلمة اخذت من خرم وهو اسم محل معروف في اذربيجان .

ثم يظهر لي ان هنـــاك سبباً آخر لاساءة الظن في البابكيين ومبادئهم الادبية وشدة الطعن فيهم ولا سيما من قبل بعض الكتبة البعيدين عن زمن الحركة على اختلاف أديانهم وقومياتهم وهو ان جماعة من اهل الدعارة والتلصص انضمت الى الحركة في اذربيجان ابان الحرب وايام نجاحهم لا لانها كانت تمت اليهم بنسب مبدئي او

لانها كانت تدرك غاياتهم السامية بل لاغراض سافلة معلومة ، والارجح ان هذه الجماعات كانت تفرقت بعد ان فشل بابك وقضى على حركته سنة ٨٣٨ – في المقاطعات الشرقيـــة واخذت تنهب وتقتل السابلة باسم البابكية ، والبابكيون منهم براء .

وقال ( A. Christensen ) في كتابه المذكور ان أهم شيء عند المزدكيين وعند المانيين ( اصحاب ماني ) ان يبتعد الانسان عن كل ما يربط روحه بالمادة ولهذا كانوا يحرمون على انفسهم اكل لحوم الحيوانات واشياء اخرى لا تأكلها الزهـاد . والمزدكيين لم يكونوا يأكلون لحوم الحيوانات لاعتبارات اخرى، منها ان ذلك كان يضطرهم الى ذبح هـــذه الحيوانات ، وقتل الحيوانات على الاطلاق ، كان ممنوعاً كما هو معروف عندهم لانهم كانوا يعتقدون ان في قتلهـــا مانعاً لتحرير أرواحهم من السجن المادي الذي هو الجسم ، فان مزدك حرّم عليهم العداوة والبغض والنزاع ودعاهم الى المساواة ، وكان دائماً يقول : ان اصل البغض والاختلاف بين الناس هو التفاوت في الدرجات الاجتماعية . وقد عرف عن ماني انه كتب كتب الحصر على الطبقة العالية من اشياعه وهي ( طبقة المؤمنين ، او المختارين ) وامرهم ان لا يذخروا من المؤونة الا ما يكفيهم يوماً واحـداً ، ومن اللباس ما يكفيهم سنة ، وكذلك عرف عن مزدك وبابك واصحابهما انهم كانوا يميلون الى الزهـــد والتنسك .

بناء على ذلك نستطيع ان نقول ان هذه المبادىء وهذا النظام كانت متبعة ايضاً عندهم او على الاقل عند الطبقة الراقية المسؤولة

الا انه لم يكن ليخفى على زعماء المذهبين المذكورين ان عامة الناس لا تقدر ان تكبح شهواتها وتتغلب على اميالها السافلة التي كانت ولا تزال تدفع الناس الى تملك الاراضي وهي وقتئذ اعظم مصادر الثروة — والنساء او على الأقل امرأة واحدة محبوبة الا اذا أرضوا هذه الاميال واطلقوا لها الحرية التامة .

على مثل هذه الاعتبارات ترتكز نظرية المزدكية وخلفائهم في الدعوة وعن هذه الافكار صدرت تعاليمهم الاساسية القائلة ( بان الموجود الأعلى وهب الناس جميع وسائل الحياة بسخاء لكي يقتسموها بالقسط حتى لا يكون لأحد اكثر من غيره لان عدم المساواة هو نتيجة الاغتصاب، وما الاغتصاب الا محاولة بعض الناس إرضاء شهواتهم على حساب غيرهم مع ان الطبيعة والعدل يقتضيان ان لا يكون لأحد أراضي او عقار او نساء اكثر مما لغيره، وعلى ذلك يجب عند اختلال هذه القاعدة ان يؤخذ من الغني المغتصب ما يزيد عن حاجته ويعطى للمحتاجين ليعود الناس الى المساواة الاصلية.

لا شك في ان من آراء مزدك وخليفته بابك في المرأة الايرانية وحالتها الاجتماعية على التعميم ما كان من شأنه ان يبعث في بعض الناس وعلى الأخص في الطبقات السفلى وطبقة المتعصبين بعض الشك في آداب سكان قراطاغ ويحملهم على اتهامهم بالتهتك الا اننا قد بينا ما لهذه الافتراءات من الصحة وانها تناقض مبادئها الادبية الاساسية وشهادة النساء المسلمات منهم. ويسرنا الآن ان نقول ان بعض كتبة المسلمين والمسيحيين ممن لم يعم الغرض أبصارهم او ممن وفقوا الى الوقوف على حقيقة بأنفسهم اما لقرب عهدهم بالحركة

البابكية او لانهم كانوا طلاب حقائق لا توهـــات كانت ترضي ذوق الطبقات المنحطة من معاصريهم .

ذكروا عن البابكية اشياء تؤيد رأينـــا فيهم وتنفي اموراً كثيرة تنسب اليهم ظلماً وبهتاناً فمن هؤلاء الكتبة (المطهر المقدسي صاحب كتاب ( البدء والتاريخ ) الذي يشهد انه رأى بعينه بين الحرميين في ديارهم ما سبدان ومهرجان قذق من يقول باباحـــة النساء على الرضا منهن واباحة كل ما يلذ النفس وينتزع اليه الطبع ما لم يعد عـــلى احد بضرر وذكر فوق ذلك انه وجدهم في غاية التحري للنظافة والطهارة والتقرب الى الناس بالملاطفة وبتقـــديم الصنيعة وفيه من الأدلة على تساهلهم في المسائل الاعتقادية واتساع صدورهم في امور الدين مالا نكاد نجده عند احد غيرهم من اصحاب الملل والنحل .

اذن لم يكن بابك يدعوا الى التهتك وتحليـــل المحرمات ولم يقصد بقوله (ان الناس شركاء في الاموال والنساء) اباحة الجماع بل اراد أن يقول ان للمرأة ما للرجل من الحقوق والواجبات العائلية فلها ان تختار من الرجال من أحبت لا من احب ساداتها او اقاربها ولها ان تتصرف في ما تملك كما يوحيه اليها قلبها وعقلها ومصلحتها الشخصية وكل هـذا اقرب الى الحقيقة مما يعزوه اليهم خصومهم في المبدأ اما ماذكره المتأخرون من مؤرخي العرب والسريان من انهم كانوا يتلصصون ويقتلون الناس من غـــير مذهبهم وانهم كانوا ( يخرجون عـلى الناس فلا يدعون رجلًا ولا امرأة ولا صبياً ولا طفلًا من قريب وبعيد الا قطعوه وقتلوه، ويقتلون من اصابوا من

الناس من اي صنف كان صغـــيراً او كبيراً مسلماً او ذمياً حتى مرن الناس على القتل اليه اي ( الى بابك ) القطاع والخراب والذعار وأصحاب الفتن وارباب النحل الزائفة )

فهذا أما مختلق عنهم واما راجع الى ايام الحرب واما انـــه كان من عمـــل اولئك ( القطاع والذعار وأصحاب الفتن ) الذين انضموا لمآرب شتى الى البابكيين ولم يكونوا على مبادئهم الادبية والاجتماعية ابداً ولولا ذلك لعجزنا عن التوفيق بين هذه الاقوال وما ذكره عنهم المطهر المقدسي وما نعلمـه عن مبادىء البابكيين والمزدكين مما اتينا على بعضه فوق هذه السطور .

هذه بضع شهادات في حق اصحاب بابك واتباعه يستنتج منها ان برنامجها لم يكن يحتوي الا على مبادىء اجتماعية بسيطة مفهومة ومطالب عادلة ترمي الى ازالة الشروط المبني عليهـا انقسام الناس الى طبقـــات متعادية متطاحنة وتدعو الى المساواة في الحقوق والواجبات ولا سيما حقوق التملك بين جميع الناس عـلى اختلاف اديانهم وتعمل على قتل عوامل العداوة والبغض وتقويـــة عرى المحبة والأخاء الحقيقي بينهم واما مازاد على هذا فلم يكن الا من قبيل الوسائل التي كانوا يستعينون بهـــا على الوصول الى غايتهم الكبرى وهي قلب الهيئة الاجتماعية في ذلك الوقت وبناؤها عـلى اسس جديدة .

اشرنا في ما سبق الى القوى المادية والمعنوية التي اعدهـا بابك في جبال قراطاغ قبل ان يعلن الحرب على خليفة بغداد او بالاحرى على النظـــام الاجتماعي العباسي ثم ذكرنا شيئا من العوامل التي

ساعدت البابكيين على الوقوف امام عدوهم القوي اكثر من عشرين سنة ولقد كنا نود لو سمحت لنا مصادرنا الكتابية ان نبين للقارىء كم قضى زعيم الحركة في اذربيجان من الزمن في اعداد لوازم الحرب والاستعداد لعمله الكبير وما هي لوازم الحرب التي أعدها ، والاساليب التي اتبعها في الهجوم والدفاع الى غير ذلك من الاسباب الخارجية التي رافقت هذه الحرب الطويلة ، الا ان كل مانعلمه من شؤون هذه الحرب يكاد ينحصر في أمر واحد وهو ان أصحاب بابك كانوا يقاتلون قتال الابطال قتال من كان يدافع عن مبدأ واعتقاد راسخ في النفوس وآمال حلوة ، لا قتال المأجورين المرغمين وانه لم يسمع عن احدهم خيانة او ضعف كل هذه المدة الطويلة بخلاف ما نعلمه عن جيش وقواد عدوهم .

ابتدأت حركة البابكيين في صيف سنة ٨١٦ و ٨١٧ على حدود جمهورية اذربيجان الحاضرة التابعة لمجموع الجمهوريات الروسية أو بالأحرى الداخلة فيه او على حدود اذربيجان وارمان ببلقان القديمة حيث كانت مدينة بذا أو بذين مركز اركانهم الحربي الواقعة في القرب من نهر اراكس او الرس كما كانت تسميه العرب ثم اخذت هذه الحركة تقوى وتمتد بسرعة نادرة حتى عمت كما يستفاد من كلام المسعودي نواحي اصبهان والبرج وكرج ابي دلف والزين زز معقل وزز دلف ورستاق الدرسنجان وقسم وكوذشت من اعمال البصرة من مهرجان قذق وبلاد السيروان واربوجان من بلاد ماسبذان وهمذان وماه الكوفة وماه البصرة واذربيجان وأرمينيا وقم وقاشان والري وخراسان وسائر ارض الاعاجم .

فكان عدد من انضم تحت ألويتهم الحمر نحو ثلثمائة الف مقاتل من اذربيجان والديلم فقط فلما شعروا بقوتهم هبطوا من الجبال واخذوا يزحفون الى البلاد المجاورة ويضمون اليهم جميع المستأيسين وحكومة بغداد لاهية عنهم او غير قادرة على ايقافهم عند حدود معلومة لانها كانت مشغولة وقتئذٍ باخماد الثورات التي ظهرت في مصر والعراق وبلاد العرب ورد هجمات الروم من الشمال كما ذكرنا سابقاً ولهذا لم تلتفت اليهم إلا في سنة ٢٠٤ ( ٨١٩ م ) اي بعد ثلاث سنوات من ابتداء الحركة فأخذت تبعث عليهم الجند تلو الجند وهم يمزقونها ويأسرون بعضها ويقتلون قوادها الى ان دخلت سنة ٢١٢ ( ٨٢٠ م ) ذكر الطبري في كلامه عن حوادث ٨٢٠ ما حرفه : نكب بابك بعيسى بن محمد وذكر بين حوادث ٢٠٩، ولى المأمون صدقه بن علي المعروف بزرديق امينية واذربيجان لمحاربة بابك فأسره بابك فولى ابراهيم بن الليث بن الفضل التجيبي اذربيجان وقال عن حوادث سنتي ٢١٢ و ٢١٤ ) :

وجه المأمون محمد بن حميد الطوسي الى بابك لمحاربته عن طريق الموصل وتقويته اياه وقتل محمد المذكور قتله بابك هشتاد يوم السبت وفض عسكره وقتل جمعاً كثيراً ممن كان معه . فكان لهذا الانكسار وقع شديد على المأمون وحكومته وبعض قواد الجيش الخليفي الذي ابتدأوا يترددون من ذلك اليوم في اخلاصهم لخليفتهم ويفكرون في الانضمام الى بابك نذكر منهم على سبيل المثل علي بن هشم الذي اطلع على خيانته عميرة بن عتبه فقبض عليه وسلمه الى الخليفة ولولا ذلك للحق ببابك وهو يومئذ صاحب

الأمر والنهي في اكثر الأقاليم الفارسية حتى صار الناس يخشون بأسه ويطلبون وده حتى في العراق بل في بغداد نفسها فصار يخشى منه على الدولة والدين . قال المسعودي يصف حالة البلاد في تلك الأيام العصيبة فكان من نتائج هذه الانتصارات الباهرة التي نالها بابك في السنين الماضية ان دخل اليأس قلوب جند الخليفة وقوادها فلم تعد تثق بنفسها ولم يعد الخليفة يثق بها ، فلم يبق لديه الا احد امرين اما ان يترك البلاد لعدوه ، واما ان يسرح جنوده القديمة التي لم تعد تصلح للقتال ويحشد جيشاً جديداً تحت قيادة اشهر قواده واعظمهم خبرة في شؤون الحروب الجبلية ليبث فيه روحاً جديدة ويدربه على قتال اعداء الدولة ونظامها الاجتماعي في جبالهم الوعرة وهذا ما استقر عليه رأيه واخذ يعمل على تحقيقه ولو لم يتوفه الله بغتةً لأتمه بنفسه .

توفي المأمون وفي قلبه حسرة مما اصابه من الفشل في حربه مع بابك ومن خوفه على زوال دولة كان من اعظم خلفائها ، فلما شعر بدنو اجله دعا اليه اخاه المعتصم والح عليه ان يداوم على حرب البابكية وبجزامة وصرامة وجلد ، ثم اشار عليه ان يمد عامل اذربيجان بالاموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة وان يتجرد له بمن معه من الانصار والاولياء ان طالت المدة فلما تولى المعتصم زمام الملك رأى من الحكمة ان يعقد هدنة مع امبراطور الروم ثم استدعى من افريقيا حيدر الافشين بطل برقة وسلمه قيادة الجيش وتدريبه على الطرق الجديدة التي اقتضتها الحروب الجبلية وامره ان يستعد للزحف على العدو ، فأخذ حيدر يهيىء ما امره به

سيده وبينما هو في ذلك اذ جاءته الاخبار ان اسحاق بن ابراهيم بن مصعب احد قواد الخليفة المخلصين والمعروفين بالعزم واصابة الرأي كسر جيش بابك واضطر فلوله الى الهرب الى بلاد الروم حيث تنصروا ودخلوا في خدمة امبراطور القسطنطينية الا ان هذه الضربة لم تكن بالضربة القاضية على بابك وجيشه لان القسم الاكبر من عساكره كان مقيماً في اذربيجان او على الاصح في اران حيث كان مركز الجيش العام واركان الحرب وعليه كان في وسع بابك ان يلم شعثه ويجمع قواه قبل ان يفاجئه لافشين بجيوشه الجديدة الا ان القائد التركي لم يمهله ذلك بل زحف عليه في ٢٨ جمادى الاولى وغرة تموز سنة ٨٣٥ ، على رأس جيش كبير مؤلف من اتراك وبرابرة ومتطوعة البصرة والعراق واخذ يتقرب من عاصمة بابك التي اعتصم بها هو واكثر جيشه ويسير عليه كل يوم من مدينة برزند وهي المدينة التي بناها في الجبال بالقرب من عاصمة بابك ، الجند تلو الجند من خيالة ورجاله مضى على وصول حيدر لافشين الى بلاد بابك اكثر من سنتين وهو يراقب فيهما خصمه ويتبع آثاره ويتفهم طرقه الحربية حتى ادرك سر نجاحه ووقف على مواضع القوة والضعف منه فأخذ يواقعه على امل ان يظفر به ويقضي عليه وقد كاد يتم له ذلك في موقعة ارشاق من عمل اران سنة ٧٣٦ ) الا ان بابك افلت منه وانسحب الى صحراء موغان ومنها الى هشتادسر حيث انقض في العام الآتي على مقدمة جيش لافشين التي كان يرأسها ربغا الكبير احد القواد المشهورين ومزقها شر تمزيق ، فلما بلغ الخبر افشين زحف بنفسه على بابك واخذ يتعقبه حتى التقى به

فكانت بينهما موقعة انكسر فيها بابك ثم لحق حيدر باحد قواده المدعو طراخان فقتله وكسر جيشه وكذلك فعل سنة ٨٣٨ باذينه قائد بابك الثاني فكانت هذه الضربة الاخيرة اعظم الضربات على بابك واصحابه لأنه فقد في الموقعتين الاخيرتين ميمنة جيشه وميسرته فلم يبق عنده من العساكر الا ما كان تحت قيادته فأضطر ان ينسحب من ساحة الحرب ويلجأ الى قلعته في بذين حيث اقام عدة اشهر يدافع عن نفسه واصحابه دفاع الابطال الى ان نفذت مؤونته وخارت قواه فاضطر ان يترك عاصمته ليلاً ويحاول ان يدخل مختفياً بلاد الروم ليطلب مساعدة صديقه الامبراطور تيوفيل فخانته الاقدار بل خانه احد بطارقة الارمن سنباط بن سهل صاحب شكي الذي استاء منه بابك فقبض عليه وعلى اخيه عبد الله ، ومن كان معهما من الاهل والاصدقاء وسلمهم جميعاً بعد ان امنهم الى رسول الخليفة ، فكان من امرهم والتمثيل بهم ما هو معروف .

ذكر المؤرخون انه لما وصل بابك الى بغداد امر المعتصم فانزلوه في قصر الافشين المعروف بالمطيرة ، وهناك زاره الخليفة متنكراً وعرض عليه بعض اسئلة لا اظنها الا من مختلقات المسعودي الذي هو في تاريخه اقرب الى جامع نكات وحكايات منه الى مؤرخ صادق لا تهمه الا الحقائق الثابتة ، وكأني بالمعتصم اراد في زيارته لبابك ليلاً ان يرى بعينيه ذلك الرجل الذي كاد يقضي على دولته ويقيم على انقاضها دولة جديدة اساسها العدل والاخاء والمساواة .

زار المعتصم عدوه الاكبر ثم عاد الى قصره حيث كان ينتظره وزراؤه وقائد جيشه العام ليفكر معهم في شر قتلة يقتلون بهـــا اسيرهم الضعيف الذي كان يطلق اسراهم بالالوف ويعطف على نسائهم واولادهم فلماجاء الصباح اخذت الناس تهرول الى رأس الجسر ليروا عدو الدولة والدين، مصلوباً هناك حتى اذا جن الليل انزلوه عن الصليب ثم قطعوه ارباً ارباً وارسلوا رأسه الى سائر البلدان، ثم جاؤوا باخيه وبعض اصحابه المقربين فقتلوهم صبراً بعد ان قتلوا عشرات الالوف في بذين بصورة تقشعر منها الابدان، ثم لم يمض على ذلك زمن طويل حتى قبضوا على حيـدر الافشين واودعوه السجن حيث مات مسموماً لخيانة ظهرت منه، كما ذكرنا سابقاً او لأسباب اخرى لم يذكرها المؤرخون.

بقي علينـا الآن ان نتساءل عن الاسباب التي ادت الى فشل هذه الحركة وقد كان يظن انها سوف تتغلب على الصعوبات التي اعترضت في طريقها؟

ان اسباب الفشل كثيرة منها خارجية ومنها داخلية ترجع الى البابكيين انفسهم، واهمها في نظري ان البابكيين حصروا دعوتهم في الامة الايرانية ولم يشركوا فيها العربية ولا التركية وهما يومئذ اعظم الامم الاسلامية ثم هناك سبب آخر لايقل خطورة عن الاول وهو ان كثيرين ممن التف حول راية بابك وحارب في السنوات الاولى معه لم يكن همهم من هذه الحركة الفكرية الا النـــكاية

بالسلطة الحاكمة والانتفاع منها فلم يكونوا يفهمون الغاية الكبرى من هذه الحركة بل كان بينهم من لبى دعوة بابك طمعاً بالحصول على منافع مادية لم يكونوا لينالوها الا من وراء الثورات والحروب الاهلية واكثر هذا الفريق كان من الكرد .

هذه وغيرها من الاسباب التي ساعدت على قتل الحركة البابكية وفشلها الا ان البذور التي القاها بابك واصحابه وقعت في ارض طيبة خصبة انبتت نباتاً حسناً في وقته كما سترى .

# الحركات الاسماعيلية

●

قلنا ان البابكيين غلبوا على امرهم وماتوا كحزب ، الا انهم عاشوا الى ايام آل سلجوف ومن ورثهم من سلاطين خوارزم كنحلة دينية لا اهمية كبرى لها ، مما جعل بغداد لا تهتم لها ولا تخاف منهم فتركتهم وشأنهم او وكلت بهم رؤساء الدين واصحاب المقالات الدينية يطعنون في مذهبهم ونظامهم ، ويفترون عليهم الاكاذيب ويحرضون عليهم احياناً اهل الجهل والتعصب .

فاضطروا ان يتستروا ويخفوا دعوتهم وان ينشروها بطرق خفية ، شأن كل دين او فكر اجتماعي ممنوع مضطهد ، فاصبحوا لذلك اشد خطراً على الحكومة والاسلام مما كانوا عليه قبلاً ، يوم كانوا يدعون الناس الى مبادئهم علناً ، ولهذا لم تذهب اتعابهم وحركتهم سدىً بل قد استفاد منها ومن اغلاطهم اناس كثيرون نخص منهم بالذكر الاسماعيلية او الباطنية ، وهم اقرب الناس الى البابكية في العقيدة والغاية واشدهم تعلقاً بالمبادىء الاشتراكية كما يتضح ذلك لكل مفكر مما سنذكره فيما بعد عن الحركة الاسماعيلية وتعاليمها ، ومما كتبه الشرق والغرب عن الباطنية والاسماعيلية ، ومما بينهما وبين اشتركيين قواطاغ من القرابة المعنوية .

رأينا ان من اسباب الفشل الذي اصاب بابك واصحابه هو عدم استعداد اكثر سكان دولة بني العباس لقبول نظامهم الذي أراد بابك ان يدخله في ذلك العصر وان البابكية اقتصرت في نشر دعوتهم على فئة قليلة من الناس كادت تكون محصورة في قطعة من جبال اران واذربيجان ، اي بين القبائل الايرانية فقط ، اما العرب - وهم اصحاب السلطة واكثرية البلاد فلم يفطن بابك او لم يجرأ على استمالتهم الى مذهبه ، ولا اعتنى ببث افكاره بينهم ، ومثل ذلك يقال عن الترك والبربر وهم وقتئذ « مادة الاسلام وجيشه المنظم » كما دعاهم الجاحظ بل ان قسما كبيراً من الامة الفارسية لم يدخل في دين بابك ولا هو اهتم لدعوته او هب لمساعدته بالقوة. اضف الى ذلك ان بابك وجماعته لم يفكروا ابداً في هدم الدين الاسلامي وآدابه التي كانت تستند عليها الدولة العباسية وكانت مصدر قوتها الحقيقي ، فكأن بابك كان يعتقد انه يكفي لنجاح عمله التوجه الى هدم النظام المبني على توحيد مصالح اصحاب الاراضي والثروة واقامة نظام جديد محله ان يبث افكاره بين طبقة من الناس او امة من الامم فقط وقد غاب عنه انه مهما كان لافكاره الجذابة من حسن التأثير على السامعين فلا يكفي هذا وحده للوصول الى الغاية المطلوبة ، وانه لابد لذلك من تعميم الدعوة واتخاذ وسائل اقوى من التي اتخذها هو واضمن للنجاح ، وهذا ما انتهت اليه لاول مرة في تاريخ الاسلام جماعة عبدالله بن ميمون القداح او الاسماعيليون على الاطلاق ، فانهم قد رأوا بعد درس شؤون الدولة العباسية درساً وافياً — انه لابد للقضاء عليها وعلى نظامها الاجتماعي من بث الدعوة الجديدة بين جميع الامم

والطبقات والاديان المؤلفة منها دولة المنصور وقتئذ ، كما لابد من جمع كلمة جميع المستائين من حكم خلفاء بغداد واثارة عواطف البغض فيهم عليهم ، ثم دك تلك الاسس التي كانت قائمة عليها الدولة المذكورة واعمها الدين والادب والعاطفة القومية ، او ما كان يقوم وقتئذ مقامهـــا ، ولكن كيف السبيل الى ذلك ودونه من الصعوبات مالايخفى على احد ؟ وهل من سبيل الى توفيق مالايوفق من مصالح طبقات الناس المتباينة ، او هل من المستطاع ان تجتمع تحت راية واحدة احزاب واديان واقوام متباينة متطاحنة وتوفق في برو غرام واحد بين نزعات واغراض سياسية واجتماعية متضادة ، تلك مسألة المسائل واعظم مشكلة عرفها التاريخ ، ومع ذلك فان الاسماعيليين قد عالجوها ، وبعد محاولات عديدة وفقوا الى حلها حلاً لم يسبقهم اليه غيرهم لا في الشرق ولا في الغرب . وهذا تاريخ الانسانية كله يشهد شهادة صادقة على انه لم يقم حتى اليوم وارجح انه لن يقوم في المستقبل حزب او دين او مذهب او جمعية او شركة تضم تحت لوائها « الغالبين والمغلوبين واصحاب الافكار الدينية الحرة » الذين ينظرون الى الدين نظرهم الى لجام ضروري للطبقات السفلى من الناس فقط ، والمتعصبين للدين من جميع الطوائف وتتخذ المؤمنين وسيلة لنقل السلطة الى الكافرين ، وتستعمل الغالبين آلة لهدم ما بنوه من الملك وتسليمه الى غيرهم ، ثم هي تؤلف حزبا كبيراً متلاحماً مطبقاً تستند عليه لوضع تاج الملك عند سنوح الفرصة . ان لم يكن على رأس مؤسس ذلك المذهب فعلى رأس احد خلفائه .

هذه كانت غاية عبد الله بن ميمون الاساسية ، وهذه كانت

افكاره وهي كما ترى، افكار غريبة مدهشة جريئة ، قد ساعده على تحقيقها دهاؤه النادر ولباقته الغريبة ومعرفته العميقة لقلوب الناس .

لو فتشت صفوف الاسماعيليين لوجدت حقيقة بينها ممثلي جميع الامم الخاضعة يومئذ لخلفاء بغداد من عرب وعجم وكرد واتراك الخ .. وجميع الاحزاب السياسية والاجتماعية من اصحاب اليمين الى اصحاب اليسار ولرأيت بينهم الفوضويين والاشتراكيين على اختلاف نحلهم ومبادئهم وممثلي جميع الاديان والمذاهب من اهل السنة والشيعيين المعتدلين الى الملحدين والدهريين .

الاسماعيلية جمعية سرية محضة لم يكن واقفاً على اغراضها وطرقها الا زعماؤها الاقلون وقادة افكارها المقربون الى زعيم هذه الجمعية وهم الذين وقفوا على اسرارها بعد ان قطعوا مراتب او مراحل التكريس المطلوبة منهم واقسموا القسم الغليظ ان لا يبوحوا لاحد باسرار جمعيتهم ، اما سائر اعضائها وهم الاكثرية فلم يكونوا يعرفون من امر هذه الجمعية الا الشيء القليل الذي كانت تطلعهم عليه دعاة الجمعية المتوقف عليهم اختيار الاعضاء وابتلاؤهم واعدادهم لتسنم الرتب السبع او التسع التي كانت يومئذ عند الاسماعيلية . والمعلوم ان هؤلاء الاعضاء المبتدئين انه لم يكن يؤذن لهم بالانخراط في سلك الجمعية الا بعد ان يبلوهم الدعاة ويثبت لديهم انهم ذوو ثقة لا خوف منهم ولا خطر وانهم اصبحوا قادرين على بث الدعوة والدفاع عن الجمعية بكل ما لديهم من الوسائل ومهما كلفهم ذلك من الاتعاب والاخطار ولهذا لم يكن الدعاة يقبلون في الجمعية المذكورة الا اصحاب الارادات القوية والعقول السليمة، من كان

يحسن القراءة والكتابة وكانوا اذا قبلوا احداً في صفوفهم علموه ودربوه ثم اطلعوه على بعض اسرار مذهبهم حتى اذا بلغ المدعو درجة معلومة سمحوا له ان يقسم قسمهم المعروف وهذه صورته كما حفظت في كتاب ابي منصور البغدادي اما ايمانهم فان داعيهم يقول: جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسله وما اخذ الله تعالى من النبيين من عهد وميثاق ان تستر ما تسمعه مني وما تعلمه من امري ومن امر الامام الذي هو صاحب زمانك وامر اشياعه واتباعه في هذا البلد وفي سائر البلدان وامر المطيعين له من الذكور والاناث فلا تظهر من ذلك قليلا ولا كثيراً ولا تظهر شيئا يدل عليه من كتابة او اشارة إلا من اذن لك فيه الامام صاحب الزمان او أذن لك في اظهاره المأذون له في دعوته فتعمل في ذلك حينئذ بمقدار ما يؤذن لك فيه . وقد جعلت على نفسك الوفاء بذلك وألزمت نفسك في حالتي الرضي والغضب والرغبة والرهبة فيجيب المحلف (نعم) ثم يقول له الداعي « وجعلت على نفسك ان تمنعني وجميع من اسميه لك بما تمنع منه نفسك بعهد الله تعالى عليك وميثاقه وذمته وذمة رسله وتنصحهم نصحاً ظاهراً وباطناً والا تخون الامام وأولياءه وأهل دعوته في انفسهم ولا في اموالهم وانك لا تتأول في هذه الايمان تأويلاً ولا تعتقد ما يحلها وانك ان فعلت شيئاً من ذلك فأنت بريء من الله ورسله وملائكته ومن جميع ما انزل الله تعالى من كتبه وانك ان خالفت في شيء مما ذكرناه لك فلله عليك ان تحج الى بيته مئة حجة ماشياً نذراً واجباً وكل ما تملكه في الوقت الذي انت فيه صدقة على الفقراء

والمساكين وكل مملوك يكون لك يوم تخالف منه او بعده يكون حراً وكل امرأة لك الآن او يوم مخالفتك او تتزوجها بعد ذلك تكون طالقاً منك ثلاث طلقات والله تعالى الشاهد على نيتك وعقد ضميرك فيما حلفت به « فيقول المحلف نعم » ولا يقول نعم . الا اذا صح اعتقاده في دينه الجديد وعقد النية على ان يفي به مهما كلفه ذلك ولا عبرة لما يتهمهم به ابو منصور من انه ليس لايمانهم مقدار ولا حرمة وانهم لا يرون فيها ولا في حلها إثماً ولا كفارة ولا عاراً ولا عقاباً في الآخرة .

اذ المعروف عنهم عكس ما يعزوه اليهم خصومهم لزعمائهم وتعلقهم بتعاليم ومبادىء الحزب التي اخذوها عن الدعاة .

لا شك في ان الايمان المذكور وما كان يتخذه الدعاة من وسائل التأثير على ارادة الاعضاء البسطاء وسير حياتهم اليومية كان من شأنه ان يربط هؤلاء الاعضاء رباطاً متيناً برئيسهم الاعظم وبعضهم ببعض ويجعلهم في ايدي الدعاة الخبيرين آلة صماء بل اجساداً لا حراك بها يتصرفون فيها كيف شاؤوا وشاءت اهواؤهم وغاياتهم ومن هنا لم يسمع بجماعة الفدائيين او الحشاشين وكلهم من الاسماعيلية الذين ذاع صيتهم في ايام الصليبيين والسلجوقيين واشتهر عنهم انهم يقومون على اعظم الامور خطراً ويضحون انفسهم حباً بالمصلحة العامة واطاعة رؤسائهم الروحيين ، وما ذلك الا لانهم كانوا على اعتقاد تام باخلاص زعمائهم وصدق ايمانهم ، وانهم هم وحدهم على الصراط المستقيم ، فكان هذا الايمان الراسخ في قلوبهم يأتي بالمعجزات وينشر الرعب في قلوب اعدائهم ، ومعلوم انهم لم يكونوا ليبلغوا

هذه الدرجة من الايمان ، وهذه الطاعة العمياء لزعمائهم الا بعد رياضة عقلية طويلة وبعد ان يتدرجوا من رتبة الى رتبة اعلى منها كما هي الحال اليوم في جمعيات اليسوعيين والماسونيين وغيرهم من الجمعيات السرية التي نرجح انها ظهرت تحت تأثير نظام الاسماعيلية كما سنرى في الفصل الاخير .

ان المطلع على اساليب الاسماعيلية وطرقهم البيجولوجية الدقيقة التي كانوا يستعملونها إما لاستمالة الناس الى مذهبهم واما للتسلط على ارادتهم وابقائهم تحت طاعتهم التامة ليعجب جداً من مهارة هؤلاء الناس ومعرفتهم الكاملة للنفس الانسانية ، ولولا خوفي من الملل لذكرت شيئاً كثيراً من تلك الاساليب التي نحسبها صحيحة ، ولو لم يرد ذكرها الا في كتب اعداء الاسماعيلية كابي منصور البغدادي والغزالي وغيرهما ، وانما يكفي لغرضنا ان نقول ان الغاية القصوى من هذه الاساليب والطرق الجهنمية ان يثير الداعي الشك في نفس المدعو وفي عقائده الاصلية ومبادئه السياسية والادبية والاجتماعية ويحمله على الدخول في سلك الجمعية السرية صاحبة العلم الصحيح وكنز المعارف الحقيقية على زعمهم . والذي نعرفه عن اعمال هؤلاء الدعاة ان طرقهم كانت تؤدي الى الغرض المطلوب ، الا في ماندر من الاحايين ، وان بذورهم كانت كما كانوا هم يعبرون تقع تقريباً دائماً في اراضٍ طيبة ، وانه لم يكن ليضرهم وان وقعت في ارض سبخة ، لانهم كانوا دائماً على حذر مما يقولون ويفعلون وممن كانوا يخاطبون حتى اذا رأوا منهم إعراضاً عن كلامهم او تفرسوا فيهم الخيانة وعدم الاخـــلاص للدعوة كانوا يحجمون عن الكلام او

يغيرون موضوعه ويدخلون في موضوع جديد لاعلاقة له بالدعوى ولا خطر عليهم منه .

وهذا لم يكن بالامر الصعب على الداعي الخبير لانه لم يكن بعد ادلى الى مخاطبه بامور مهمة ولا كشف له عن سر من اسرار جمعيته يكون من ورائه ضرر عليها ، وذلك لان الدعاة لم يكونوا يطرقون في احاديثهم الاولى مع المبتدئين إلا المواضيع العامة التي كان يقصد بها التعرف بنفسية وعقلية المقبلين على الدعوة وايثارة الرغبة فيهم الى الدخول في دين جديد حتى اذا دخلوه واقاموا فيه سنين اطلقوهم بالتدريج على تعاليم جمعيتهم وغاياتها الاجتماعية والادبية وهكذا الى ان يبلغ المدعو الرتبة السابعة ، وقليل من كان يبلغها ويقف بنفسه على غاية الجمعية القصوى وطرق الوصول اليها ، اما الدعاة انفسهم فلم يكونوا يبلغون إلا الدرجة الخامسة وهي الدرجة التي كان يقف الداعي فيها على بعض اسرار الجمعية بعد ان يكون حلف الايمان المذكور في الرتبة الرابعة ، ومن لم يكن يبلغ هذه الدرجة كان يبقى عضواً بسيطاً مطيعاً مربوطا بارادة غيره وبالاخص بارادة الزمان الذي هو اعرف الناس بغايات الجمعية واسرارها واقدرهم عن استخدام هؤلاء البسطاء .

يستفاد من اقوال الكتبة المتقدمين من اعضاء الجمعية الاسماعيلية الذين بلغوا الدرجة الرابعة فقط ولم يقسموا بعد الايمان المطلوب منهم لم يكونوا يعرفون من برنامج الجمعية الا مبادئها الدينية والادبية ، اما تعاليمها السياسية والاجتماعية فلم يكن يكشف لهم عنها الا بعد الدرجة الرابعة وتأدية القسم المعلوم ، ولا شك عندي

في ان هذا وغيره من وسائل التسترجعل الهيئة الاجتماعية الاسلامية في ذلك الوقت تظن في الاسماعيلية الظنون وتنسب اليهم مالا يتفق الا في النادر مع الحقيقة .

واغرب من ذلك ان اكثر الترهات عن الاسماعيلية والتباين في الحكم عن تعاليمهم وردت ليس فقط في كتب المتأخرين بل في كتب معاصريهم من مسلمين ومسيحيين ، فمنهم من زج الاسماعيلية بين الماديين ومنهم من حسبهم زنادقة يقولون بازلية العالم ويكفرون بالشرائع والانبياء ، ومنهم من كان يحشرهم بين اصحاب زرادشت والمجوس الذين كانوا لايزالون يحلمون باحياء دين الفرس القديم ؛ ومنهم اخيراً من كان ينسبهم الى السابيين واصحاب الفلسفة اليونانية القديمة على اختلاف نحلها وطرقها فكانوا استناداً على ذلك يعزون اليهم من الاقوال والافعال ما هم في الحقيقة براء منه ، خذ مثالاً على ذلك رسالة تعزى كذباً الى بعض الاسماعيلية تجد فيها من التهم القبيحة والاقوال الفظيعة الموجهة الى الاسماعيليين ما لو صح جزء منها لكانت الاسماعيلية من احط الناس ادبا واخس من عرفهم التاريخ ، فقد جاء عنهم في تلك الرسالة انهم ملحدون دهريون اباحيون يستحلون المحرمات ويرتكبون اكبر الجرائم ، ويسوغون استعمال جميع الوسائل ان هي ادت الى الغاية المنشودة .

وذكر ابو منصور البغدادي ان صاحب الرسالة المذكورة قال فيها ما يأتي : « وما العجب من شيء كالعجب من رجل يدعي العقل ثم يكون له اخت او بنت حسناء وليست له زوجة في حسنها فيحرمها على نفسه وينكحها من اجنبي ، ولو ان عقل الجاهل لعلم انه

احق باخته وبنته من الاجنبي . وما وجه ذلك الا لأن صاحبهم ( النبي ) حوم عليهم الطيبات وخوفهم بغائب لا يعقل وهو الاله الذي يزعمونه واخبرهم بما لا يرونه ابداً من البعث من القبور والحساب والجنة والنار حتى استعبدهم بذلك عاجلاً وجعلهم له في حياته ولذريته بعد وفاته حولا واستباح بذلك اموالهم بقوله : « لا اسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى ، الشورى ٢٣ » فكان امره معهم نقداً وامرهم معه نسيئة ، وقد استعجل منهم بذل ارواحهم واموالهم على انتظار موعود لا يكون وصل الجنة الا هذه الدنيا ونعيمها ، وهل النار وعذابها الا ما فيه اصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلوه والصيام والجهاد والحج ؟ . وجاء فيها ايضاً ، وذلك لأول مرة في التاريخ ، ذكر المضلين الثلاثة Trois imposteurs الذين ملأ حديثهم الأجيال الوسطى الى غير ذلك من الاقوال التي تنسب الى الاسماعيلية تحليل المحرمات ونسخ الآداب المتبعة في ذلك العصر فقد ذكروا عنهم انهم قد اباحوا لاتباعهم نكاح البنات الاخوات واباحوا شرب الخمر وجميع الملذات ، ويؤكد ذلك ان الغلام الذي ظهر منهم في البحرين والاحساء سن لاتباعه اللواط .

فلو اضفنا الى ذلك ما كانوا يعزونه الى الاسماعيلية من الكذب والنفاق وطرق التضليل لاستوعبنا ماقال خصومهم فيهم وفي مبادئهم الادبية والدينية ، اما معلومات اعداء الاسماعيلية عن مبادئهم السياسية والاجتماعية فاقل جداً من معلوماتهم عن مبادئهم التي ذكرناها قبل ذلك كما يتضح لكل من طالع كتاب ابي منصور وغيره من الكتبة ، وغاية ما يمكننا ان نستخلصه من اقوال هؤلاء الكتبة

المبعثرة المتباينة هو ان زعماء الاسماعيلية وقادة سياستها كانوا كلهم او اكثرهم من الفرس المتعصبين لقوميتهم والعاملين بكل الوسائل على احياء ملكهم الدارس او ممن يقولون باللاقومية وممن كان غرضهم دك اركان الدولة العباسية المؤسسة على العصبية القومية وبناء دولة اممية على انقاضها تكون مؤسسة على مساواة جميع الأمم في الحقوق وعلى دين العقل السليم .

ومما ذكره كتبة المسلمين عن اغراض الاسماعيلية انهم كانوا يسعون الى نزع الملك من ايدي خلفـــاء بني العباس وتسليمه الى العلويين الذين كانوا يرجون منهم خيراً لانفسهم .

هذه خلاصة ما ذكره كتبـــة الاسلام عن تعاليم الاسماعيلية واغراضهم السياسية والاجتماعية ، فاذا نحن قابلنا هذه الاخبار بما جاء في كتب الاسماعيليـة النادرة وما حفظته الايام من كتب واخبار الجماعات الدينيـــة والاجتماعية التي خرجت من احضان الاسماعيلية كالقرامطة والفاطميين والحشاشين والدروز والزيدية في اليمن واسماعيلية هـــذا اليوم وجدنا ان كثيراً مما نسبه اليهم كتبة الاعصر السالفـــة لا يتفق مع الحقيقة خصوصاً ما قيل عن آدابهم واخلاقهم بل قد يكون اقرب الى الحقيقة عكس ما نسب اليهم في كتب اصحاب المقالات الدينية « فقد عرف مثلاً عن بعض الخلفاء والفاطميين انهم كانوا يميلون الى التزوج بامرأة واحدة وانهم كانوا يدعون رعيتهم الى اتخاذ هذا النظام العائلي .

ذكروا ان الخليفة المعتز ٩٥٣ — ٩٧٥ ) دعا رؤساء قبائل افريقيا الشمالية الى الزواج الفردي ( لان بذلك تزيد سعادة الحياة

ويحفظ نشاط الروح ولأنا في حاجة الى كل قواكم وعقولكم ).

فانت ترى مما ذكر ومن وقوفك على حالة الجماعات المذكورة الادبية في الوقت الحاضر ان اخلاق الاسماعيلية على الاطلاق لم تكن من السقوط في الدرجة التي يصورهم فيها خصومهم وانهم لم يكونوا يدعون الى الفدمية الادبية كما يظن البعض ومثل هذا يقال في تعاليمهم الاجتماعية والسياسية فلا بد اذن من التحفظ والتروي عند الحكم عليهم واصلاح ما نسبه اليهم اعداؤهم من الاغلاط والمبالغات وان كان يصعب احياناً تحديد درجة هذه المبالغات لما نعرفه الآن عن تكتم الاسماعيلية واخفائهم عن الناس اسرارهم واختلاف عناصرهم ونزعاتهم . ثم لا يجب ان يغيب عن بالنا ان كثيراً من تعاليم الاسماعيلية الاساسية قد تطور مع الزمن وان دعاتهم كانوا يراعون في اقوالهم درجة سامعيهم العقلية والادبية وعلاقتهم بالدين عامة وبالاسلام خاصة وينظرون الى قومياتهم واميالهم السياسية فكانوا يخاطبون كلا منهم بلسانه وبما يوافق اميالهم وعواطفه ودرجة نموه العقلي فربما كانوا يخاطبون الفارسي بغير ما كانوا يخاطبون به العربي والمسلم بخلاف ما كانوا يخاطبون به غير المسلم . ويكاشفون الفلاسفة واهل العلم والطبقة الراقية من الناس بغير ما كانوا يدعون به الطبقة السفلى وهلم جرا مما ينتج عنه انه كان للاسماعيلية برنامجان ( اعلى وادنى ) فان صح ذلك واظنه صحيحاً لأن بعض الكتبة اشار اليه سهل علينا والحالة هذه ان نفهم سبب ذلك التباين الظاهر في اقوال بعض كتبة المسلمين عن الاسماعيلية وتعاليمهم على انه لا يستنتج من هذا انه لم يكن للاسماعيلية برنامج

معلوم متفق عليه عند اكثريتهم يمكن ان نطلق عليه اسم البرنامج الاصغر وهو ذلك البرنامج الذي ذكرت فيه مبادئهم الاصلية التى لم يطرأ عليها تغير ظاهر والتي كانت تميزهم عن غيرهم من اصحاب النحل والاحزاب العديدة في ذلك الوقت .

لا ريب في وجود هذا البرنامج الاصغر لا نستطيع اليوم ان نجمع بنوده ونعرضها على القارىء مستندين في ذلك على شهادات اعداء الاسماعيلية وما حفظ من كتب الاسماعيلية انفسهم او من يمت اليهم بقرابة روحية من الجماعات المذكورة آنفاً فان نحن قابلنا بين هذه الاخبار كلها ونقدناها نقداً علمياً محضاً منزهاً عن الاميال والغايات امكننا ان نستخرج منها الصورة الآتية للأسماعيلية .

من المعلوم ان منشأ الحركة الاسماعيلية واكثر الحركات الفكرية والسياسية والادبية التي هزت العالم الاسلامي هزات عنيفة وزلزلت ارضه وسماءه هي الشيعة العلوية ، والذي نعرفه من امر هذه الشيعة المعتدلة انها انشقت الى فرعين . فرع يعرف بالاثنا عشرية وفرع آخر يعرف بالسبعيـــة سمي اصحابه بهذا الاسم لانهم وقفوا عند الامام السابع وهو اسماعيل بن جعفر الصديق الاكبر ، الامام السادس من ائمة هذا الفرع . ومعلوم ايضاً ان جعفر الصديق رفض ان يقيم ابنه اسماعيل خلفاً واماماً من بعده نظراً لسوء سيرته ولانه كان يدمن الخمر الا ان حزب اسماعيـــل وهم الاكثرية في الفرع المذكور اعترض على ذلك وايد اسماعيل واعترف بامامته فعرف باسمه الى هذا اليوم .

توفي اسماعيل سنة ١٤٥ هـ اي قبل ابيه ودفن في المدينة حيث

بقيت تقيم عائلته الى أواخر الجيل الثامن حين اضطر اعضاؤها الى مهاجرة بلدهم لاشتراكهم فعلاً في حوادث ذلك الوقت السياسية او لانه خيل لاصحاب السلطة يومئذ انهم اشتركوا فيها فتفرق اولاد اسماعيل واحفاده في البلاد . فهبطوا شمال فارس والعراق وسوريا ثم نزحوا الى بلاد الهند وشمال افريقيا . الا ان عيون بني العباس كانت تتبعهم اينما حلوا واين رحلوا لانهم كانوا يخافون نفوذهم ويحسبونهم اعظم الناس عليهم خطراً ، فاضطر ذلك بني اسماعيل الى التخفي وسكنى البيوت البعيدة والمدن الصغيرة من حيث بدأوا يرسلون دعاتهم الى اطراف الخلافة العباسية لبث دعوتهم السياسية ونشر تعاليمهم الدينية والاجتماعية التي اخذت تختلف رويداً رويداً عن الدين الاسلامي بل عن الدين كله لما اخذ يتسرب اليها من العناصر الغريبة والآراء الفلسفية اصبحت بعد زمن قليل مذهباً بل ديناً قائماً بذاته نستطيع ان نلخصه في الأسطر الآتية :

قلنا ان الاسماعيلية جمعية سرية يترأسها زعيم يعرف بالامام أو صاحب الزمان له سلطة مطلقة على جميع اعضاء الجمعية اي على حياتهم وما يملكون وكلمته مطاعة عندهم كحكم من احكام الشريعة بل اقوى لان الامام عندهم وفي نظرهم معصوم عن الخطأ ، كخليفة الله في ارضه ، وارادته لا ترتد اذ ليست خدمة الله الا تتميم ارادته والاخلاص له فمن عرف امام الزمان واقسم باسمه واعتمد عليه في كل شيء ثم عرف اوامره وتمسك بها واعطى لكل ذي حق حقه ولم يحد عن الحقيقة فقد عرف الله حق معرفته» فمن قبل هذه العقيدة اضطر ان يقبل ايضاً ان امام الزمان اعلى درجة أو درجات من

النبي لأن ليس للحدود التي وضعها الانبياء إلا اهمية نسبية قد لا تتعدى زمانهم اماحدود امام الزمان او تأويله لحدود غيره فلها اهمية مطلقة لا يحصرها زمان ولا مكان .

وقد عرف عن الاسماعيلية انهم كانوا يؤولون الشرائع الدينية وشعائرها تأويلاً باطنياً ومنه عرفوا بالباطنية يخالف ظواهرها ولكن لا يخالف العقل السليم وانهم اخذوا تأويلهم هذا عن فلاسفة اليونان وخصوصاً الافلاطونيين الاحداث فكان من نتائج هذا التأويل انهم قضوا على الشرائع المنزلة وبذلك رفعوا شأن ( امام الزمان ) وحصروا السلطة في يديه )

وان هذا المذهب الجديد الذي اراد الاسماعيلية ان ينشروه بين المسلمين وغير المسلمين ليس هو إلا احدى نتائج تعليمهم الاساسي عن الدين ومكانه في نظامهم الفلسفي وما الدين الحقيقي في نظرهم الا ان يتوصل الانسان بالتمرين المستمر والترقي من درجة الى درجة الى معرفة منازل الكون التي قطعتها ( العوالم المكونة بعد ان انفصلت عن الله اي عن الفكر الواحد المطلق (الغير المجسم او العقل الاول او النور الاعلى ) المشع من نفسه في المنزلة الثانية العقل العام والنفس العالمية وهما اللذان يحدثان ، بعد ان يتغيرا العقول الانسانية وعقول الانبياء والائمة وخيرة الناس . اما سائر الناس فليس لهم عقول بل ( اشباه العدم ) الا اذا انتقلوا الى المنزلة الثانية بواسطة التنوير والتعليم ، ولهذا التعليم درجات عديدة تقابل درجات التكريس التي تكلمنا عنها سابقاً اذا سار الانسان فيها بلغ الدرجة القصوى من الكمال العقلي والادبي اللذين هما الغرض الاكبر

من حياة الانسان الدنيا . اما السبيل الى بلوغ هذه الغاية فهو على رأيهم انماء القوى العقلية ثم السيرة الحسنة والحياة الادبية الواقعة لمطالب العقل السليم وهذا يؤيد ما ذكرناه سابقاً عن علو آداب الاسماعيلية على الاطلاق وينافي ما كان يتهمهم به بعض اعدائهم . نحن لا ننكر انه يصعب على المؤرخ الاجتماعي ان يتتبع سير الحركات الاسماعيلية وادوار تطورها وبين ما طرأ على برنامجها الاصلي من التغير ولكن لا بد من ذلك لكل من يبحث عن تاريخ الحركات التقدمية في الشرق الاسلامي ولهذا توانا مضطرين ان نبين ذلك على قدر ما تسمح لنا به معارفنا والنصوص التي توفقنا الى جمعها ودرسها .

يظهر أن مطالب الاسماعيلية السياسية في الدور الاول لم تكن لتختلف كثيراً عن مطالب غيرهم من الشيعة اي انها كانت ترمي الى نزع السلطة من ايدي بني العباس ونقلها الى خلفاء علي وأبنائه الذين اختطفت منهم كما يزعم اشياعهم ، والمعروف ان هذه المطالب كانت في بادىء الأمر علانية يشترك في تأييدها بعض اعضاء العائلة المغتصبة حقوقها واتباعهم من العرب والفرس ، فكانت هذه الحركات تؤدي احياناً الى ثورات شعبية كانت تضع الدولة العباسية في مراكز خطرة تضطرها الى استعمال القوه لمعاقبة القائمين بها معاقبة شديدة تشمل البرىء والمجرم ) الا ان هذه الوسائل لم تكن لتثني اصحاب تلك الحركات الفكرية عن عزمهم او تحملهم على الاستسلام لأنهم كانوا يعتقدون أن الحق في جانبهم وانهم لا بد ان يبلغوا غايتهم المنشودة وقد تحول هذا الاعتقاد تحت

تأثير عوامل وافكار غريبة عن الاسلام الى ايمان قوي من قرب ظهور رجل – مهدي – يتغلب على دولة بني العباس ويسترد منهم الملك ليسلمه الى اصحابه فلما ظهر هذا المهدي أو امام الزمان أخذوا يعلقون عليه ، وذلك تحت تأثير العوامل المذكورة وما اصاب العلويين من الفشل والمحن وما دخل على دولة بني العباس من التغيرات الاجتماعية والسياسية ، آمالاً جديدة غير آمالهم السياسية المعلومة فصاروا ينتظرون من مهديهم او امامهم الاكبر ان يعم العدل بين الناس ويشفي الارض من امراضها الاجتماعية الى غير ذلك من الاعمال التي تنطوي تحت كلمة عدل وأن يحقق كثيراً من المبادىء والافكار التي اخذت تتسرب في هذا الوقت الى عقول زعماء الاسماعيلية من الخارج اي من كتب فلاسفة اليونان وتلاميذهم في الشرق أو من النحل الدينية والعناصر الاجنبية اما المطالب الاجتماعية التي ادخلها الاسماعيليون على بروغرامهم فأهمها :

١ – المساواة بين الجنسين .

٢ – ابطال ملكية الاراضي وتوزيعها على المحتاجين اليها مجاناً وهو كما رأينا ما كانت تسعى الى تحقيقه الاحزاب التقدمية قبل ظهور الاسماعيلية وانما الفرق بين هؤلاء والتقدمين هو ان الاسماعيلية بنوا طلبهم هذا على مبادىء فلسفية علمية لا على مبادىء ادبية محضة كما فعل من سبقهم من التقدمين مما لا يستنتج منه مع ذلك إلا ان الاسماعيلية كانوا يرفضون مبدئياً تلك المبادىء الادبية ثم هناك فرق آخر بين المذهبين هو ان الباطنية لم تقتصر على مد أساس جديد تحت المبادىء التقدمية القديمة بل وسعت ايضاً القسم الاجتماعي

في برنامجها وتوفقت في بعض الاقاليم الى تحقيق نظامها .

أضف الى ذلك ان الاسماعيلية هم أول من قاوم في الاسلام العصبية القومية ودافع عن فكرة الأخاء الحقيقي لا بين المسلمين فقط بل بين جميع الناس على اختلاف قومياتهم وطبقاتهم وأديانهم اي عن الاخاء المبني لا على وحدة الدين كما كانت الحال في الاسلام او الكثلكة في الاجيال الوسطى على مطالب العقل السليم .

فهم اذن لم يحصروا دعوتهم وسعيهم في طائفة من الناس معلومة كالازيارية او البابكية وغيرهم بل وجهوها الى جميع البلاد وجميع الامم ولهذا نرجح ان تعريف بعض الكتبة للاسماعيلية بانهم من اشتراكيين ايران ونبذهم اياهم بالتعصب لهذه الامة صادر عن رغبة هؤلاء الكتبة في اثارة الرأي العربي على زعماء هذه الحركة واما عن جهلهم لمبادىء الاسماعيلية الاساسي ، واما عن ان زمام الحركة كان في بادىء الامر في ايدي جماعة من الفرس واما اخيراً لانه كانت بين الاسماعيلية — وما الاسماعيلية كما بينا الا اخوية مؤلفة من جميع الامم والنحل - فئة صغيرة من الفرس تعمل في السر على احياء مملكة العجم واعادة مجد بني ساسان الا ان هذا الامر اذا صح لا يقدح من مذهب الاسماعيلية على الاطلاق لانه كان امياً مبنيا على اوليات فلسفية معلومة وما على المرتاب الا ان ينعم النظر في العناصر القومية المؤلفة منها اخوية الاسماعيلية فيرى هناك الفارسي والعربي والكردي والنبطي والهندي والتركي والبربري .

قال ابو منصور البغدادي وقوله في هذه المسائل ثقة « والذي يروج عليهم مذهب الباطنية اصناف احدها العامة الذين قنعت

بصائرهم باصول العـــلم والنظر كالقبط والاكراد واولاد المجوس والصنف الثـــاني الشعوبية الذين يرون تفضيل العجم على العرب والصنف الثالث اغنام بني ربيعة من اجل غيظهم من مضر لخروج النبي منهم .

ترى من هذه العبارة ومن غيرها مما لا حاجة الى ذكره هنـا ان الاسماعيلية هم حقيقـــة اول من تغلب في الاسلام على العصبية القومية التي لم يقو عليها بنو أمية ولا بنو العباس وعلة ذلك ان الاسماعيلية اعلنوا من يوم ظهورهم ان المسائل القومية لا تهمهم لان الغرض الذي يرمون اليه ويسعون الى تحقيقـه ليس بغرض قومي ولان الأوهام القومية التي كانت تمزق في تلك الاعصر جسم الدولة العباسية لا تتفق مع مبادئهم الفلسفية ، فهم والشعوبية من هـذا القبيل على طرفي نقيض بل ربما كان ظهورهم رد فعل ضد الشعوبية فاذا جاز ان نسمي الشعوبية حزب العصبية القوميـــة ، كانت الاسماعيلية حزب اللاقومية او الأصح النيقومية لانه لا يجب ان نفهم من كلامنا هذا ان الاسماعيلية كانوا اعداء الشعوبية او ظهروا لمقاومتهم فقط كلا! ان كلا من هذين الحزبين كان مستقلا عن الثاني يرمي الى غايات متباينة كان يتخذ للوصول اليها اساليب ووسائط مختلفة بل يجوز ان يقال انهما تلاقيا في طريقهما التي قطعاها مستقلين وسارا زمنا معلوما جنبا الى جنب بدون ان يتصادما او يقتتلا ولو اختلفت مبادئها وما ذلك الا لانه كانت هنـاك نقطة تجمع بينهما وهي بغضهما للدولة الحاكمة والعصبية العربية وهذا ما لاحظه واشار اليه ابو منصور بقوله :

ان الشعوبية كانت تدخل دين الاسماعيلية وتؤيده .

نحن لا ننكر ان التأليف بين قلوب وعقول تلك الجماعات المختلفة المؤلفة لجمعية الاسماعيلية ليس بالأمر السهل، وان محاولة ذلك كان يكلف زعماءها ودعاتها اتعابا لا يعرفها الا من عانى مثل هذه المشقة . وانه خيران يكون اعضاء الحزب الواحد على مبدأ واحد قبل ان ينضموا الى ذلك الحزب او ان يكونوا مستعدين الى تلقي مبادئه واتباع سياسته قبل الانخراط في سلكه الا ان هذا شيء نادر في تاريخ الهيئات الاجتماعية والاحزاب السياسية كما هو معلوم. فكل حزب يريد ان يحقق احلامه السياسية او الاجتماعية في هذه الحياة الدنيا لا بد ان يتعب في جمع كلمة من يحتاج الى مساعدتهم من الناس وتثقيفهم وتمرينهم على العمل والا كان سعيه باطلا .

هذا ما انتبه اليه زعماء الاسماعيلية بعد ان اصبح حزبهم السياسي مذهباً اشتراكياً او اخوية فلسفية والى ذلك أشار عبيد بن الحسن القيرواني احد كتبة الاسماعيلية في رسالته الى احد دعاة المذهب الميرز بن سليمان بن الحسن ابي سعيد الجنابي حيث يقول :

اذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به فعلى الفلاسفة معولنا وإنا واياهم مجمعون على ان نواميس الانبياء على القول بقدم العالم لولا ما يخالفنا فيه بعضهم من ان العالم مدبراً لا يعرفه وقال قبيل ذلك ادع الناس بان تتقرب اليهم بما يميلون اليه وأرهم كل واحد منهم بانك منهم فمن آنست منه رشداً فاكشف له الغطاء .

لو أردنا ان نتتبع بالتفصيل تاريخ الحركات التي أحدثتها الاسماعيلية وكانت دائماً تحت تأثيرها لوجب ان نضع لذلك مؤلفات

عديـدة فقي بالغرض ، وكذلك لو اردنا ان نبحث بالتدقيق عن تأثير الافكار الاسماعيلية على الآداب والفلسفة الاسلامية وحيـاة المجتمع الاسلامي في الأعصر المذكورة ولهذا نكتفي بالاشارة الى ان الافكار التي بثها دعاة الاسماعيلية بين طبقات المسلمين وغير المسلمين كان من شأنها ان قلبت حياتهم رأساً على عقب واحدثت بينهم من التغير ما لا تزال آثاره باقية الى هذا اليوم ، فالفلسفة مدينونة لهم برسائل واخوان الصفا وهي اول دائرة للعلوم والمعارف ظهرت في العالم وقد حاولوا ان يبثوا فيها مبادئهم العلمية ونظرهم الخاص الى الطبيعة والانسان وينشروا فيها آراء فلاسفة اليونان الذين كانوا في نظرهم من درجة الانبياء او أعلى فمهدوا بذلك السبيل لفلاسفة الاسلام كالفـارابي وابن سينا وغيرهم . اذ لا شك في ان كثيراً من نظريات هؤلاء الفلاسفـة وافكارهم السامية مأخوذ عن كتب الاسماعيلية ، نذكر من ذلك نظرية الفلاسفة المذكورين الى من يعرف بالاستعداد للنبوة او بعبـارة اخرى بالامام الكامل او الحكيم الكامل ، فانها ولا شك من بنات افكار الاسماعيلية ومثلها النظريات المبتكرة التي نجدها في رواية حي بن يقظان لابن طفيل ثم ان لهم آثار بينة عميقة في علم التفسير حيث ساعدوا على نشر مبدإ التأويل .

وفي فلسفة التصوف وحيث شعر بتأثيرهم في كتب ابن العربي والغزالي والحلاج وغيرهم . ناهيك عن متصوفي الفرس الذين كانوا ولا يزالون اكثر ميلاً الى المبادىء الاسماعيلية من اخوانهم العرب واهم من ذلك في نظري ان الحركة الاسماعيلية مهدت السبيل لنشر

الافكار الحرة في العالم الاسلامي وجرأت الناس على المجاهرة بها بعد ان كانوا يخافون من البحث في ما هو اقل منها خطراً ولو لا ذلك لما تجاسر ابن العربي ان يقول :

لقد كنت قبل اليوم انكر صاحبي  اذا لم يكن ديني الى دينه داني

ولولاها لما رأينا عشرات من الكتبة والشعراء يحملون حملاتهم الشعواء على الأوهام والخرافات الدينية والعداوات القومية واصحابها ويحتجون بلا خوف ولا حذر على الضغط على الحرية الشخصية من قبل اصحاب السلطة المدنية والدينية فهذا ابو العلاء المعري امام الناقمين من الظالمين وزعيم المفكرين الاحرار هل كان يستطيع ان يقول :

ان الشرائع ألقت بيننا إحناً  واودعتنا أفانين العداوات

أو هل كان في وسع ابي العلاء وغيره ان ينشروا افكارهم علانية ويدعوا الناس الى افكارهم الحرة والخروج على اهل السلطة الظالمين، ولو لم تمهد الاسماعيلية امامهم الطريق وتعود الناس الاصغاء الى مثل هذه الاقوال والاقبال عليها ، وهذا ( ابن الهاني ٩٧٣ ) شاعر اسبانيا الطبيعي لم يخف ان يتشيع للاسماعيلية ويدخل في مذهبهم جهاراً ، ومثله ومثل ابي العلاء كثيرون بين كتبة العرب والفرس وشعرائهم حبذا لو اعتنى احد بالبحث عنهم وجمع اشعارهم واقوالهم وتحليلها من الوجه الذي نتكلم عنه ، وحبذا ايضاً لو اهتم علماؤنا بالبحث عن تأثيرات الاسماعيلية على كتبة الاجيال الوسطى المسيحيين وعلى ظهور أخوية الجزويت ونظامها الغريب المخالف لسائر انظمة الجمعيات الرهبانية التي ترمي اليها او في روحه الغريبة

المتجلية في سلطة رئيس الجمعية المطلقة ووجود تلك الدرجات التي يقطعها السالك قبل ان يصل الى الدرجة العليا ، الى غير ذلك من المميزات التي لا نجدها الا في نظام الاخوية المذكورة مما اوحى الى بعض الكتبة في اوربا ان يعزو ظهور الجزويت ونظامهم الى تأثير الاخوية الاسماعيلية او الى من تأثر بتعاليمها ونظامها الداخلي من اصحاب الطرق الصوفية ، ثم حبذا لو اعتنى احد علمائنا بالبحث عن تأثير نظام الاسماعيلية وتعاليمهم على نظام وتعاليم الماسونية وسائر الهيئات والجمعيات السرية والاخوية الرهبانية او نقابات المحترفين وطرق الدراويش . نعم قد ظهرت في السنوات الاخيرة بعض ابحاث في هذه المواضيع حاولت ان تلقي اشعة من نور على بعض هذه المسائل الغامضة ، الا انها جاءت ضعيفة لاتفي بالغرض ولا اصحابها من اهل العلم ولا لهم معرفة باللغات والفلسفة الشرقية ولهذا لا تزال هذه الابحاث في مهد الطفولة ، ونحن وان توافرت لدينا المواد المتعلقة بالمواد المذكورة وبما كان للاسماعيلية من التأثير على الهيئات الاجتماعية في ذلك الوقت وبعده ونتائج مبادئهم العملية فانا لانقدر لسوء الحظ ان نأتي عليها هنا والا اضطررنا ان نذكر تاريخ الجماعات التي ولدتها الحركة الاسماعيلية كالفاطميين والحشاشين والقرامطة والاسماعيلية المتفرقة اليوم في كثير من البلاد ، ولهذا ترانا مجبرين ان نقتصر على ذكر جماعة واحدة فقط تجلت فيها روح الاسماعيلية في اكمل صوره وتحققت بينها احلامهم الاجتماعية ونظامهم الاشتراكي ، وهـــذه الجماعة هم القرامطة او اسماعيلية البحرين كما يدعوهم بعض المؤرخين ولكني احب قبل ان اتكلم عن هذه الجماعة

ان البحث عن تهمة طالما اتهم بها الاسماعيلية خصومهم .

يقول خصوم الاسماعيلية ان زعماء هذا المذهب اظهروا قساوة شديدة في حروبهم ومعاملاتهم مع اعدائهم في المبدأ وانهم افرطوا في قتل الافراد والجماعات من اصحاب النفوذ والسلطة وانهم كانوا يستعملون كل الوسائل لابادة اعدائهم والوصول الى غاياتهم مهما كانت هذه الغايات، وحجة القائلين بذلك اعمال القرامطة والحشاشين وغيرهم من جماعات الاسماعيلية الذين دخلوا فيما بعد في خدمة بعض السلاطين والامراء واصبحوا آلة صماء في ايديهم يستعملونها للانتقام من اعدائهم الشخصيين .

كل هذا صحيح لاينكره احد ، ولكن تفسيره غير صحيح . لا ريب في ان الاسماعيلية حزب شديد البأس يكاد يكون حزباً حربياً خطته اقرب الى الهجوم منها الى الدفاع ، حزب حاول من يوم ظهر ان يقضي على دولة بني العباس ويبني على انقاضها دولة جديدة ذات نظام تقدمي ، إلا ان هذا الحزب لم يكن يعمد في بادىء الامر الا الى الوسائل السلمية وهي الحجة والاقناع ، الى ان اضطره خصمه الى الخروج عليه بالسلاح كما حدث سنة ٩٠٩ يوم دعته الى ذلك ظروف الحال ومصالحه الحيوية . اما اغتيال الافراد وقتلهم على غرة فلم يكن معروفاً الا عن فئة صغيرة من جماعة الحشاشين وهي فئة — وان كان لها صلة قرابة بالاسماعيلية — عرفت بينهم بالتطرف وكان لها برنامج وغايات تختلف عما لغيرها من جماعات الاسماعيلية كما كان لها وسائط خاصة تستعملها للوصول الى غايتها القصوى ونظام قائم بذاته لم يكن يعرفه خصومهم مما نتج عنه

ان اكثر الناس صاروا ينسبون لجميع الهيئات الاسماعيلية ما هو خاص بفريق منهم فقط ، ويعاملونهم جميعاً معاملة واحدة ، فكان من ذلك انهم صاروا يكرهون الاسماعيلية على الاطلاق وقد بلغ بغضهم لاصحاب هذا المذهب درجة حملتهم على اخراجهم من الامة الاسلامية ، اي على تحليل دمائهم ومعاملتهم معاملة الكفرة مع علمهم بان الاسماعيلية يحرمون القتل الا في ساحات الحرب وعند الدفاع عن النفس في حالات معروفة كان يوجدها لهم اعداؤهم ليقضوا عليهم لا لذنب اقترفوه بل لانهم كانوا على غير رأيهم فكم من الاسماعيلية ذهبوا ضحايا هذا التعصب الاعمى وذلك البغض الفظيع ؟ .

ذكر عماد الدين الهمذاني ان احد امراء خرسان قتل في مدة قليلة اكثر من مئة الف من الباطنية وبنى من رؤوسهم مناراً اذن عليه المؤذنون »

وورد في كتاب ابي منصور البغدادي « ان محمد بن سبكتكين سلطان غزنا المشهور قتل في مدينة سلطان من ارض الهند الالوف وقطع ايدي الف منهم »

فكان خصوم الاسماعيلية قرروا ان لا يبقوا على وجه الارض احداً منهم لانه رسخ في عقولهم « ان ضرر الاسماعيلية على الاسلام عظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس ، بل اعظم من مضره الدهرية وسائر اصناف الكفرة عليهم بل اعظم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان » . ولأن فضائح الباطنية اكثر من عدد الرمل ، فلا ريب اذن في ان حالة الاسماعيلية في هذه الحرب العامة

كانت حرجة جداً ، ولما كان عددهم اقل من عدد اعدائهم كانوا والحالة هذه مضطرين الى الدفاع عن انفسهم اكثر من الهجوم الا حيث كانت الاكثرية او الظروف في جانبهم ، فكانوا يستعيدون منهم للانتقام من اعدائهم انتقاماً يذكرنا بقساوة الحروب الاهلية او حرب الطبقات الناتجة عن تضاد المصالح والمبادىء وهي الحروب التي يعمد فيها الطرفان الى وسائل واساليب قد لا يعمد اليها احد في الحروب الاعتيادية والتي يصعب عندها الحكم في اي من الطرفين هو اشد همجية وقساوة واقرب الى الحيوان .

على كل ، لاريب في ان الحروب الاهلية اشد همجية من غيرها وان فوز احد الطرفين المتطاحنين على مبدأ او نظام جديد يكلف الانسانية ضحايا اكثر مما تكلفها الحروب السياسية او غيرها .

كان اصحاب المبدأ الجديد يبلغون اربهم ويقضون على دولة بني العباس لو لم تأتها مساعدة قوية من امة حديثة مملوءة حماساً ونشاطاً وهمجية نادرة في تلك العصور وذلك الوسط الراقي ، وهذه الامة هي الامة التركية التي اصبحت من اواسط العصر التاسع صاحبة الامر والنهي في بغداد ، وصار اليها امر الدفاع عن هذه الدولة وانظمتها الدينية والمدنية فقامت بما عهد اليها حق القيام وقاومت اعداء الدولة والدين بما عرف عنها من الحزم والقساوة والتعصب ، فاصاب الاسماعيلية منها ما اصاب ، مما لا حاجة الى ذكره هنا ، فاضطروا الى الانسحاب من كثير من ميادين القتال والالتجاء الى الجبال والبلاد البعيدة حيث استطاعوا ان يحافظوا على مطلبهم الاكبر وكثير من انظمتهم الاجتماعية الى هذا اليوم ، وقد زاد في

ضعفهم وتشتيت شملهم انهم لم يكادوا ينتهون من قتال الترك حتى دهمهم عدو جديد من الغرب لا يقل تعصباً وهمجية عن خصمهم الطوراني الذي جاءهم من صحاري منغوليا وآسيا الوسطى ، ونعني بهذا العدو الجديد الصليبيين الذين جاؤوا بلادنا يحملون في قلوبهم البغض لاهلهـا ، وفي عقولهم افكاراً ومبادىء اكل الدهر عليها وشرب . فكان لا بد من ان يشتبكوا في هذا الوسط الجديد في قتال مع اصحاب الافكار الجديدة كان انتهى بفشلهم واخلائهم البلاد التي عاثوا فيها اكثر من جيل فعادوا الى بلادهم يحملون مع البغض والتعصب الاعمى وجراثيم افكار جديدة وعالم جديد ظلت تختمر وتنمو حتى ظهرت بعد عصرين او اكثر في صور مختلفة تتجلى فيها او في بعضها تلك الافكار والانظمة التي اخذها اجدادهم عن الشرق عامة والاسماعيليين خاصة .

# القرامطة وحركاتهم

القرامطة هم عظم من عظام الاسماعيلية ، ولحم من لحمهم ، لايختلفون عن غيرهم من فرق هذه الاخوية المتشتتة في جميع اطراف الخلافة العباسية الا بانهم كانوا يشتغلون بين العرب واخوانهم ابناء العراق وسوريا وجزيرة العرب او بامور ثانوية قد يكون لها مساس باساليب الدعوة فقط لا بالمسائل الاساسية المبدئية ، فان صح هذا الظن يكون سبب هذا الاختلاف تباين الحقل الذي كانت تعمل فيه القرامطة ودرجة العمران بين سكان تلك البلاد ، كلهم او اكثرهم كما نعلم من الاعراب ، ولهذا يظهر لي ان القرامطة العرب كانوا اقل تطرفاً في المسائل الدينية والادبية من اسماعيلية الفرس وان بعض العادات الفارسية ، كالتزوج بالاخوات القريبات ، ممن حرم القرآن التزوج بهن لم يكن معروفاً عندهم ، كما لم تكن شائعة بينهم ( ليلة الامام ) وغير ذلك من المحرمات وافعال الفسق والتهتك التي كانوا يتهمونهم بها كذبا وبهتاناً مستندين في ذلك كما يظهر لي على تأويل فاسد لعبارة وردت في كتاب لابن الجوزي المؤرخ ، حيث قيل عنهم انه « لايجوز لاحدهم ان يحجب امرأته عن اخوانه » فاول خصومهم كلمة حجب ، بمعنى منع او بما شاءت اهواؤهم من

متوادفاتها ، ويظهر لي ايضاً ان زعماء القرامطة الذين اسسوا هذا الفرع بين العرب والسريان لم يكونوا مطلعين على اغراض رؤساء الحركة السرية ، اما لانهم لم يبلغوا الدرجة الاخيرة من التكريس او لأنه لم يكن يسمح لهم بالوصول اليها اذ لم يكن يصل اليها الا القليلون . على انه من المحقق اليوم ان قرامطة البحرين والعراق العربي لم يكونوا يختلفون عن سائر الاسماعيلية في المسائل الاساسية المبني عليها برنامجهم ، وانهم كانوا يتبعون في جميع حركاتهم وسكناتهم الاوامر التي كانت تصدر اليهم من امام الزمان ، ولهذا يجوز لنا ان نعد القرامطة فرعاً من فروع الشجرة الاسماعيلية الكبرى الذي نبط به نشر الدعوة بين العرب والنبط خاصة .

كان مركز هذا الفرع مدينة واسط بين الكوفة والبصرة والقرى المجاورة لها ، وكان اكثر سكان هذه البلاد خليطاً من العرب والنبط والسودان الذين كان اصحاب الاراضي الواسعة يجلبونهم من افريقيا لاعتمال اراضيهم واستغلالها على شروط تذكرنا بشروط الاشغال في الولايات الجنوبية من اميركا الشمالية قبل تحرير العبيد فيها ، فلا عجب والحالة هذه اذا كان اكثر سكان تلك البلاد مستائين من حالتهم الاجتماعية وميالين الى كل دعوة من شأنها ان تخفف عنهم حملهم الثقيل وتدعو الى الرحمة والرأفة بهم وهذا سبب نجاح دعوة القرامطة في تلك البلاد وتهافت الناس عليها اعتقاداً منهم ان صاحب الزمان ودعاته سوف يحررونهم من نير العبودية وظلم الدولة وأصحاب الاملاك .

انا لا نعلم بالتدقيق من اسس المركز المذكور ولا من أسس

وشرع في العمل فيه الا انه يغلب على ظننا انه أسس قبل حمدان القرمطي الذي عرفت الدعوة باسمه او بالأصح ان بعض دعاة الاسماعيلية كانوا زاروا هذه البلاد قبل ان يزورها حمدان الا انهم لم يتركوا فيها اثراً بيناً يدل على اقامتهم فيها مدة طويلة ولهذا لا مانع يمنعنا من ان نعد حماداً المذكور أول داع لهذا القطر وأول منظم لشؤون المركز الاسماعيلي الجديد .

ذكر المؤرخون أن حمدان وقد كان قبلا اكاراً بسيطاً يعتمل الارض لغيره . جاء تلك البلاد مبعوثاً من داعٍ اكبر منه وانه بنى قرب الكوفة مركزاً جديداً للدعوة الاسماعيلية سماه « دار الهجرة » حيث كان يجتمع في اوقات معلومة كل من كان يدخل في دعوته من اهل القرى لاستماع مواعظه والنظر في أحوال من قبل الدعوة الاقتصادية والاجتماعية ولتلقيهم ما كان حمدان يتلقاه من ( امام الزمان ) واعوانه من الأوامر والاخبار ثم لأقامة بعض شعائر رمزية لم تكن معروفة ومستعملة بين الاسماعيلية الا في هذه القرى التي كان سكانها من النبط والعرب المستعربة ، فلما رأى حماد اقبال الناس على دعوته ودخولهم في المذهب الجديد أفواجاً رتب لهم نظاماً يضمن نجاح الحركة وسيرها سيراً حثيثاً ويكون لهم دستوراً يرجعون اليه عند الحاجة ، فكان من شروط هذا النظام ان يؤدي كل عضو من اعضاء المذهب الجديد ديناراً في كل سنة للأمام المحبوب زعيم الاسماعيلية ثم ضريبة كانت تعرف عندهم ( بالفطر وهي درهم كان يؤديه جميع الاسماعيليين بدون استثناء وضريبة اخرى تعرف ( بالهجرة ) وهي دينار كان يؤديه

كل بالغ وبالغة لينفق في محله على حاجات ( دار الهجرة ) فكانوا يؤدونها عن طيبة خاطر حتى اذا عجز احدهم عن تأديتها اداها عنه غيره راضياً مسروراً .

ذكر أحد المؤرخين أن حماداً بعد أن بنى ( دار الهجرة ) ، ورتب أمورها عرض على من احب ممن دخل في دعوته ان يؤدي ضريبة اخرى سماها ( البلغة ) وهي ضريبة خاصة كان يؤديها كل من أراد أن يشترك في ( عشاء المحبة اي أن يأكل من خبز الجنة ) او كما سماه حماد نفسه وغذاء اهل الجنة ) الذي كان يأتيه من امام الزمان توآ .

وزاد بعض الكتبة ان حماداً بعد ان وضع على اصحابه (البلغة) دعاهم ان يؤدوا لدار الهجرة خمس ما كانوا يملكون او يكتسبون فلبوا دعوته راضين . ثم قدروا أملاكهم ودفعوا عنها الخمس فرحين حتى كنت ترى المرأة تقدم للداعي خمس غزلها والفاعل خمس اجرته فكانت هذه الضريبة قسطاً يدفعه الشخص الى صندوق الاخوية كعضو فيها إلا ان حماداً لم يكتف بهذه الضرائب بل أمر اهل القرى التي دخلت في دينه ان يحلوا الى محل واحد كل ما يملكون فلما جمعوه جعله مشاعاً بين الاعضاء يتولى توزيعه رجل منهم ذو ثقة فكان يجمع ما كان يحضره الاعضاء من اثاث وحلى وثياب ومأكولات ومال ثم يوزعه على المحتاجين من القرامطة حتى لم يبق بينهم فقير فكنت ترى الرجال منهم يشتغلون برغبة ونشاط والنساء يحملن الى ( بيت الجماعة ) ما كن يكسبنه من المال بالغزل حتى الاولاد الصغار أنفسهم كانوا يقدمون الى مدير البيت ما كانوا

يأخذونه من الجعالة من اصحاب البساتين التي كانوا يحرسونها في النهار ويطيرون الطير عن اشجارها وبقولها حتى لم يعد احد يملك لنفسه الا ( سبقه وسلاحه ) .

هذا جل ما ذكره الكاتب المذكور عن النظام الجديد الذي سنه حماد القرمطي لأصحابه في العراق وقد اغفلنا ما عزاه الى زعيم القرامطة من الافعال والسنن المغايرة للاداب العمومية لأننا لم نتحقق صحتها. فلما أتم داعي العراق مهمته في واسطة انتقل الى محل آخر يعرف بالوزة بالقرب من بغداد فأقام فيه مدة طويلة يعمل على نشر الدعوة ويكاتب فرع خراسان الذي كان أرسله الى الكوفة وصاحب الزمان ) الذي كان يقيم في عسكر مكرم وحماد يراقب في كل هذا الوقت مجرى السياسة في عاصمة بني العباس ليستفيد من اغلاطها ويطبق عليها سير الحركة الاسماعيلية عامة وسير الاعمال في المركز الذي أسسه خاصة وقد كان يساعده في ادارة اعمال فرع العراق ويقوم بجميع مكاتباته مع صاحب الزمان والخلايا الباطنية الاخرى نسيبه (اخو امرأته) عبدان صاحب بعض كتب القرامطة المقدسة وعبدان هذا هو الذي عين زكرويه داعياً في العراق العربي وأبا سعيد الجنابي في جنوب العجم والبحرين .

اخذت دعوة القرامطة تنتشر من واسط الى سائر البلدان العربية المجاورة لها والبعيدة عنها حتى بلغت جنوب جزيرة العرب حيث تكونت خلية او نواة اسماعيلية قوية اصبحت تناوىء بعد قليل من الزمن عمال السلطة المركزية وتستدعي انتباه خلفاء بغداد ثم تكونت بمساعي ابي سعيد الجنابي خلية ثالثة في الاحاء من بلاد

البحرين صار لها بعد مدة قليلة شأن يذكر وأصبحت من اهم مراكز الاسماعيلية على الاطلاق لأن أبا سعيد المذكور عرف كيف يتقرب من عرب البحرين ويستميلهم الى دعوته التي وقعت بذورهـــا في ارض خصبة فنمت سريعاً وانبتت نباتاً حسناً .

اخذت هذه الخلايا تنمو وتتسع حتى عمت اكثر بلاد العربيـة وسوريا والعراق وكانت كلها ترمي الى غرض واحد وتعمل تحت مراقبة دعاة محنكين مدربين كابي سعيد الجنابي المذكور وذكرويه لدنداني وغيرهمـــا ممن كانوا يستمدون قواهم الروحية من دعاة اعظم منهم كصاحب الناقـة ( ابي عبد الله محمد ) واخيه صاحب الخال ( ابي عبد الله احمد ) فلا عجب اذا عظم أمر هـذه الدعوة واقبل الناس عليهـا من كل جانب حتى من عاصمة الخلافة حيث دخل فيها جماعة كبيرة من اصحاب الطبقات العالية كانت القرامطة تعتمد عليهم عند الملمات وكانوا لهم عيوناً على الحكومة في بغداد التي لم تكن تعرف من امر هؤلاء الخوارج الا الشيء القليـــل فلم تكن تشعر بالخطر الذي اخذ يحدق بهـــا ويتهدد كيانها الى ان دخلت سنة ٢٧٨ ( ٨٩١ ) فخرجت الاسماعيلية فيها من خفائها واخذت تستعد لمهاجمة عدوها الاكبر ثم جاءت سنة ٢٨٤ ( ٨٩٧ ) وهي السنة التي حاولت فيها لاول مرة جماعة من القرامطة ان تحقق برنامجها بالفعل فلم توفق الى ذلك فاضطرت ان ترجىء عملها الى فرصة اخرى فأخذت تراقب خصمها وتبث عليه العيون ثم تخرج عليه كما سنحت لها فرصة ٢٨٧ - ٨٩٠ — ٢٨٨ و ٨٩١ — ٢٨٩ — ٨٩٢ ) وتقاوم عماله في الاقاليم البعيدة عن العاصمة لكنها لم تنجح في معركة

من المعارك لان عدوها كان لم يزل اقوى منها وكان يترأسه صنديد من صناديد بني العباس النادرين في هذه الاسرة ولا سيما في العصر المذكور وهو الخليفة المعتضد الذي بقي يقاوم الحركة الاسماعيلية ويرد شرها عن دولة اجداده الى ان توفي سنة ٢٨٩ — ٨٩٢ فخلفه رجل ضعيف الهمة والارادة غير موفق في اعماله فلم يلبث زعماء الحركة ان استفادوا من ضعفه فأعادوا الكرة على خصمهم وانصبوا عليه من كل جانب حتى لم يعد في وسع السلطة المركزية ان تراقب حركات الاسماعيلية في كل الجهات وتخمد ثوراتها في الاقاليم البعيدة فصارت هذه الاقاليم تنفصل عن خلفاء بغداد وتؤلف كتلاً مستقلة.

ذكرنا ان من الدعاة الذين كانوا يعملون في العراق تحت مراقبة حماد القرمطي ابا سعيد الجنابي من قرية جناب في جنوب بلاد العجم وان حماداً ارسله داعياً الى البحرين ونزيد على ذلك الآن ان ابا سعيد لم يكد يطأ ارض البحرين ويشرع في عمله حتى اخذ يلتف حوله سكان تلك المقاطعة على اختلاف طبقاتهم وعناصرهم من اهل المدن الناقمين من الدولة العباسية ونظامها السياسي والاجتماعي الذي لم يخلق لهم ولم يخلقوا له ومن اعراب البادية الذين عرف عنهم من يوم ظهر الاسلام انهم كانوا يكرهونه ويكرهون شعائره واحكامه ولا سيما ما له علاقة بالزكاة والاعشار التي لم يتعودها البدو واظنهم لن يتعودوها فلا عجب والحالة هذه اذا رأيناهم يلبون دعوة ابي سعيد ويؤيدونه في بلادهم وقد دعاهم الى ترك الشعائر الدينيـــة واكثر حدود الدين التي لم يألفوها الى ذلك الوقت ثم الى مؤاخاة النـاس على اختلاف اجناسهم ودياناتهم ووعدهم بالسعادة على هذه الارض

وفي هذه الدنيا لا في عالم اخر يكادون لا يتصورونه ولا يعرفون عنه شيئاً، فكان ممن قبل دعوة ابي سعيد واخذ يشد ازره ويساعده في نشر مبادئه في البحرين حسن بن سنبر وكان رجلاً وجيهاً محترماً في قبيلته وذا نفوذ كبير في البحرين ، فلما دخل في دين ابي سعيد وزوجه بنته قويت منزلة ابي سعيد في تلك البـــلاد وكثر اقبال الناس عليه فلم تمض على اقامته هناك مدة طويلة حتى اصبح ذلك الاقليم في يده ولم يبق في طاعة الخليفة الا عاصمة البـــلاد وبعض القرى المجاورة لهـــا ، لكن ابا سعيد تمكن بعد زمن قصير من الاستيلاء عليها سنة ٢٨٧ — ٩٠٠ ) وضمها الى جمهوريته . ثم اخذ يزحف منها على البصرة ، فبلغ هذا الخبر الخليفـة المعتضد فقلق له فامر ان يمدوا عامله هنـــاك ، وهو يومئذ عباس الفتوى ، بالمال والرجال فامدوه بعشرة آلاف رجـل فزحف على رأسهم للاقاة القرامطة الذين كان يقودهم ابو سعيد نفسه ، فلما التقى الجمعان قرب البصرة انكسر جيش الخليفة واسر قائده وتبددت عساكره تطلب النجاة في الفلاة فلم ينج منهم الا القليل اما من وقع في الأسر فأنه قتل بامر من ابي سعيد انتقاماً للقرامطة الذين قتلوا قبل هذه الوقعة في بغداد بأمر من خليفتهـــا ولم يبق ابو سعيد الا على قائد جيش الخليفـــة الفتوى المذكور فأنه امر بالمحافظة عليه ثم اطلق سراحه وارسله الى امير المؤمنين ليبلغه ما كان من امر جيشه وبأس القرامطة ليسلمه الكتاب الآتي .

ما هذا ؟ اتخرق هيبتك وتقتل رجالك وتطمـــع اعداءك في نفسك بانفاد الجيوش اليّ وانما انا رجـل في فلاة ولا زرع عندي

ولا ضرع ولا لي بلد وقد رضيت بخشونة العيش والامن على المهجة والعز باطراف الرماح وانظر فاني ما اغتصبتك بلداً كان في يدك ولا ازلت سلطانك عن عمل جليل ومع هـذا فوالله لو نفدت لي جيشك كله ما جاز ان تظفر بي ولا تنالني لأني رجل نشأت في هذا القشف فتعودته انا ورجالي فلا مشقة علينا فيه ونحن في اوطاننا مستريحون وان تنفذ جيشك من الحرير والثلج والرياحين والند ثم يجيئون من مسافة بعيدة وطريق شاق فيصلون الينا وقد قتلهم السفر قبل قتالنا وانما غرضهم ان يبلو عـذراً في قتالنا ومواقعتنا ساعة ثم يهربون فان حقوا مع ما قد لحقهم من وعثاء السفر وشدة الجهـد كان اكبر اعواني عليهم فما هو الا ان حققت عليهم حتى ينهزموا واكثر ما يقدرون عليه ان يجيئوا فيستريحوا ثم تكون عدتهم كثيرة وبصيرتهم قوية فحينئذ لا يكون لي بهم قبل فانهزم فلا يقدر جيشك ان يتبعني الا مسافة قريبة فما هو ان ابعد عشرين فرسخاً او ثلاثين واجـول في الصحراء شهرا وشهرين ثم اكبسهم على غرة حتى اقتل جميعهم وان لم يتم لي هـذا وكانوا متحوزين فما يمكنهم ان يطوفوا حولي وخلفي في البراري ولا يتبعني الطلب في البوادي ثم لا يحملهم البلد في المقام ولا الزاد ان كانوا كثيرين فلا ان ينصرف الجمهور ويبقى الاقل منهم قتلى سيوفي اول يوم نلتقي فيه هذا ان سلموا من وباء هذه الناحية ورداءة مائها وهوائها الذي لا طاقة لهم به لانهم نشأوا في ضده وربوا مـع غيره ولا عادة لاجسامهم بالصبر عليه ففكر في هذا ونحوه وانظر هل بقي تعبك وتقريرك بعسكرك وجيشك وانفاقك الاموال وتجهيزك الرجال

وتكلفك هذه الاخطار وتحملك المشاق بطلبي وانا مع هـذا خالي الذرع منها سليم النفس والاصحاب جميعـاً واما هيبتك فتخرق واما الاطراف فتنتقض واما الملوك من الاعداء فتجاسر كلما جري عليك من هذا شيء ثم لا تظفر من بلدي بطائل ولا تصل مني الى حال ولا مال فان اخترت بعد هذا محاربتي فاستخر الله تعالى واقدم على بصيرة وانفذ من شئت واضطرب كيف احببت وان امسكت فذلك اليك .

فلما قرأ الخليفة كتاب ابي سعيد امتعض جداً واراد ان يزحف عليه بنفسه الا ان حالة الخلافة في ذلك الوقت وعلى الاخص حالة الجيش الخليفي وبيت المال اضطرته الى قبول نصيحة خصمه فتركه وشأنه وهذا كل ما كان يرجوه ابو سعيد فأنه انتهز هـذه الفرصة النادرة واستولى على مدينـــة حجر عاصمة البحرين بعد حصار طويل ثم استولى على غيرهـــا من البلاد والاراضي التي كانت لم تزل تحت سلطة الخليفة او شيوخ وامراء مستقلين حتى صار كل اقليم البحرين في بدء سنة ٢٩٠ — ٩٠٣ ) لا يزاحمه فيـه مزاحم ، لكنه لم يكتف بذلك ، بل اخذ يستعد للأستيلاء على البلاد المجاورة للبحرين وبث دعوته فيها فزحف الى « اليمامه » وضمها الى بلاده ثم أتى عمان ، فاستولى على قسم كبير منها ومن الجزائر التابعة لها ، ولولا ان يتوفاه الله ( قتل في الحمـام سنة ٩١٤ ) لضمها كلها الى جمهوريته بل كان ضم غيرها من البلاد العربية والعراق وألف منها جمهورية كبيرة مبنيـة على أسس تقدمية جديدة توفي ابو سعيد عن ابناء كثيرين لم يشتهر منهم بعلو الهمة وبعد النظر والثبات في القتال

الا ابو طاهر سليمان وهو الذي خلف اباه في وظيفته واخذ يعمل على تحقيق امانته فلم يكد يتولى الحكم وقيادة الجيش القرمطي حتى اخذ يزحف تارة على البصرة وبغداد وطوراً الى الغرب ، اي الى الحجاز وهو في كل غزواته موفق ومعقود له الظفر حتى صار الخليفة يخشى بأسه وصارت العاصمة وسكانها يرتعدون عند ذكر اسمه او اسم القرامطة فأصبحت كلمة قرمطي، مرادفة لكلمة جندي مخيف لايقهر وقدساعد على انتشارهذا الخوف ظهورقرامطة الشام وقطعهم الطرق على الناس ونهبهم السابلة الى غير ذلك من النكبات التي اصابت الخلافة العباسية في الربع الاول من العصر العاشر فأحرجت مركزها وجعلت سقوطها على قاب قوسين او اقرب وان اعظم نكبة اصابتها في هذا الوقت وكادت تقضي على هيبتها في البلاد ونفوذها الادبي هي ولا شك دخول ابي طاهر ارض الحجاز في ١٢ كانون الثاني من سنة ٩٣٠ ) :

يظهر ان الغرض من الزحف على الحجاز والاستيلاء عليها كان اولاً الانتقام لأحد دعاة القرامطة الكبار وهو زكرويه وجنوده الذين أسرهم امير الامراء سنة ٩٢٩ وامر الخليفة بقتلهم وثانياً الحط من قدر خليفة بغـــداد وهيبته في عيون المسلمين وثالثاً : اشغال الخليفة وجيشه عما كان يجري في هذا الوقت من الحوادث المهمة في افريقيا الشمالية حيث بدأ (امام الزمان) وزعيم الاسماعيلية الاكبر عبيد الله يمهد السبيل لنزع تلك البلاد من ايدي عمال خلفاء بغداد او خلفائهم وتأسيس دولة مستقلة عرفت بعد ذلك بالدولة الفاطمية. فان صح ذلك كان الباعث على هذه الغزوة ليس حب السلب والقتل

فقط ، بل اسباب سياسية وحربية مهمة تخفف ولو قليلاً من ذنب ابي طاهر واصحابه .

اما حكومة بغداد فانها كانت عاجزة عن مقاومة القرامطة بالقوة المسلحة فكانت تكتفي بالقبض على بعض اشخاص ينتمون اليهم او هي تظنهم منهم فتوقع بهم او بهدم مسجد من مساجد بغداد كان يجتمع فيه بعض القرامطة المتكتمين فقد ذكر ابن الجوزي انه كان للقرامطة خواتيم من طين ابيض يختمها لهم الكعكي وعليها ( محمد بن اسماعيل الامام المهدي ولي الله فكانت حكومة بغداد تعرفهم بهذه الخواتيم فتقبض عليهم وتقتص منهم حين كانت تعجز عن محاربة اخوانهم ، نعم انها جربت ان تجرد عليهم جنود اذربيجان تحت رئاسة الامير يوسف ابن الساج عامل الخليفة هناك . الا ان هذا العمل لم يؤد الى نتيجة حسنة او الاصح كاد يؤدي الى نتائج سيئة ذلك لانه كان للعامل المذكور ضلع مع القرامطة فكان يطلعهم على اسرار حكومة بغداد وحركات جيشها ، لانه كان ينتظر قرب سقوط الدولة العباسية او يعمل مع غيره على ذلك راجياً ان يقيم على انقاضها دولة مستقلة في اذربيجان يجعلها ارثاً في ولده وهذا ما كان يحلم به قبله رجل آخر من اسرته يدعى محمداً ، هذا اذا صحت رواية كاتب الامير يوسف ، محمد بن خلق النيرماني التي ادلى بها الى نصر حاجب الخليفة ، وقد ذكر فيها ان يوسف كان يستر عنه (عن كاتبه ) مذهبه في الدين وانه لما سار الى واسط انس به وانبسط اليه فكشف له انه يتدين بان لا طاعة (للخليفة) المقتدر عليه ولا لبني العباس على الناس طاعة ، وان الامام المنتظر هو العلوي الذي

بالقيروان ، وان ابا طاهر الهجري صاحب ذلك الامام وانه قد صح عنده انه يتدين بدين القرامطة وانه ( اي يوسف ) يرى انتعاض المقتدر وسائر ولد العباس الغاصبين اهل الحق فرضاً لله عز وجل عليه وان طاعته طاغية الروم اصلح من طاعته للخليفة .

فان صحت هذه الوشاية نتج عنها انه لم يبق عند بني العباس رجال مخلصون يعتمدون عليهم عند الحاجة وان أقرب الناس اليهم كوزرائهم وحجابهم وعمالهم على البلاد وامراء جنودهم اصبحوا يميلون الى خصومهم ويتجسسون لهم ويدسون لدولتهم الدسائس او على الاقل صار يرتاب في اخلاصهم لولي نعمهم وللدولة التي اقسموا لها المحبة والاخلاص وابعد من ذلك تناول سائر الطبقات بل العائلات والافراد حتى كنت ترى في العائلة الواحدة نزعات سياسية واجتماعية متباينة كانت تفرق بين الزوج والابن وابيه والأخ واخيه الصديق وصديقه فصار الناس منهم في القرامطة فريقين فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة فمن عاداهم خاف من بطشهم ومن سالمهم نسب الى شركهم في شركهم وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين وها نحن موردون من تاريخ ابن الاثير حكاية وحيدة من نوعها تجلت وفيها روح العصر ودرجة انحلال الهيئة الاجتماعية الادبي وتأثير الحركة الاسماعيلية على عقول الناس وحياتهم الاجتماعية وخلاصة هذه الواقعة :

ان شاباً ممن التحق بالاسماعيلية واشترك في غزوات ابي طاهر التي انتهت كما ذكرنا بقتل بعض الناس وسبي البعض الآخر وان بين السبايا اللواتي اخذهن القرامطة امرأة فتفرس فيها فاذا هي امه

فسألها عن حالها ودينها فلما عرف انها لا تزال مسلمة على مذهب اهل السنة والجماعة اعرض عنها وابى ان يساعدها ثم لما عرف انها حصلت على رخصة من زعيم القرامطة الرجوع الى بناتهـــا اللواتي يقمن وحدهن في بغداد لحقها وضربها بالسيف . قالت . فجرحني ومنعه القوم وساروا بي الى القوم الذي سمـــاه لهم صاحبهم وتركوني وجئت الى هاهنا . قالت : ولما قدم الامير بالقرامطة الاسرى رأيت ابني فيهم على جمل عليه برنس وهو يبكي . فقلت له لا خفف الله عنك ولا خلصك .

فهل من بغض أشد من هذا البغض وهل ذكر التاريخ الاسلامي عداوة اشد من هذه العداوة ، بل هل مرّ تاريخ الاسلام بدور بلغ فيه التفكك الاجتماعي والتنافر بين طبقات الناس هـــذا المبلغ ؟ ووالله ان امة انقسم ابناؤهـا قسمين اقسم كل منهما ان يموت او يقهر عدوه لابد ان يؤول أمرها الى الزوال او ان يتغلب فريق منها على فريق آخر فيفنيه او يبتلعه وويل يومئذ للمغلوب في هـــذه الحرب المبدئية التي لاتعرف رحمة ولا شفقة . اخذ الفريقان يستعدان للنزال الاخير ويهيئان له اسبابهُ فلما حان الوقت وظن كل منهما انه هو الاقوى وان الظفر معقود له ، اشتبكا في حروب عديدة كانت سنة ٣١٢ — ٩٢٤ سجالاً بينهما ثم اخذ الحظ يخون جيوش الخليفة ويبتسم للقرامطة ما ستولوا سنة ٣١٥ — ٩٢٧ من اخرى عـــلى البصرة ونهبوها ثم كسروا عساكر يوسف بن ساج عامل اذربيجان الذي ارسله الخليفة مدداً لعامل المدينة المذكورة وبددوا شملهم وكذلك فعلوا بسائر الجيوش التي كان يرسلها خليفـة بغداد

ضد القرامطة حتى ضج النـاس وشملهم الرعب فصاروا يختلقون الاحاديث الغريبة عن جيش ابي طاهر وعدده ويعتقدون أن نجاحه في ساحات الحرب يرجع الى مخاريق واعمال سحرية ويقوم بها هو واصحابه في معمعان القتال وان قوى غير بشرية تساعده الى غير ذلك من التوهمات التي يمليها عليهم الخوف في حين ان انتصار القرامطة في اكثر المواقع لم يكن الا نتيجة اجتماع كلمتهم وطاعتهم العمياء لزعيمهم وثقتهم التامة به وثباتهم في القتال المتوقف على اعتقادهم الراسخ في صحة ما يقاتلون عليه ، فضلاً عن انهم كانوا اشد بأساً واثبت جناناً واقوى على احتمال مشقات الحرب من جنود الخليفة الذين كان اكثرهم من سكان المدن المعتادين الراحة كما قال رئيس القرامطة في رسالته السابقة الى الخليفة المقتدر .

ذكر ابن الجوزي ، أن جدهم سأل يوماً قرمطياً عن اسباب انتصارات اصحابه مع قلة عـدد جيوشهم فأجابه القرمطي ولانا نطلب نجاتنا في الثبات وانتم تطلبونه في الهرب ، ولعل هنـاك اسباباً اخرى لا حاجة هنا الى البحث عنها نذكر منها جواز خيانة رئيس الجيش الخليفي وهو يوسف بن ساج المذكور ان صح ما ذكره عنه كاتبه .

كان لانتصار القرامطة الاخير وسقوط البصرة في ايديهم ضجة كبيرة في بغداد وتأثير قوي على سكانها الذين اخذوا يفرون منها الى ما جاورها من البلاد لان الطريق اليها اصبحت مفتوحة ولأنه لم يعد لدى الخليفة جيش يعتمد عليه ويرد به غارات القرامطة ان هم أرادوا ان يفتحوا دار الخلافة ويحتلوها احتلالاً دائماً الا ان أبا

طاهر لم يكن يفكر – لأسباب لا نعلمهـــا في الزحف مع جيشه الصغير على عاصمة الخلافة فاوى راجعاً الى بلاده مكتفياً بما اصابه من الغنائم وبما وضعه من الضرائب على المدن والقبائل التي كان يمر بها في طريقه الى عاصمته البحرين فلما ترك البصرة ارسل الى مونس قائد جيش الخليفة قصيدة تهكمه يقول فيها :

قولوا لمؤنسكم بالراح كن آنساً  واستتبع الراح سرنايا ومزماراً

لم يكد سليمان ابو طاهر يدخل عاصمة بلاده ويستريح حتى اخذ يستعد بامر كما يظهر لنا من صاحب الزمان لغزوة بعيدة لم يقدم عليها قبله احد ممن دخل في دين النبي العربي فلم يطلع عـــلى عزمه وغايته احداً الى ان تمت معدات السفر فترك عاصمة بلاده وخرج يريد بيت الله الحرام ليضرب الاسلام في صميم قلبه ويقضي عليه في منشأه ان استطاع الى ذلك سبيلاً ولعل قصده من هذه الغارة كان ان يقضي ايضاً على هيبة خلفاء بغداد ونفوذهم السياسي والأدبي في دار الاسلام .

دخلت سنة ٣١٧ – ٩٣٠ – وليس فيهـا ما يدعو الى القلق فأخذت الوف الحجاج ترد الى بيت الله آمنة لا هم لهم الا قضـــاء شعائر الحج والعودة الى بـلادهم سالمين مطمئنين لكنهم لم يكادوا يتمون هذه الشعائر وبعضهم لم يبدأ بهـا حتى جاءتهم الاخبار ان أبا طاهر زاحف على مكة في جيش مؤلف من ٦٠٠ فارس و ٩٠٠ رجل ولم يمض على شيوع هذه الاخبار بضعة ايام الا وكان ابو طاهر واصحابه على ابواب مكة واميرها وجماعـــة كبيرة من اعيانها يستعطفونه ويحاولون ان يقنعوه بالرجوع الى بلاده مزوداً بالمال

والهدايا الثمينة فلم يوفقوا الى ذلك فدخل ابو طاهر واصحابه مكة واخذوا يقتلون اهاليها ومن كان فيهـــا من الحجاج من رجال ونساء وهم متعلقون بالكعبة وردم بهم زمزم وفرش بهم المسجد وما يليه وقتل في سكك مكة وشعابها من اهل خراسان والمغاربة وغيرهم زهاء ثلاثين الفاً وسبي من النساء والصبيان مثل ذلك واقام بمكة ستة ايام ولم يقف احد تلك السنة بعرفه ولا من نسكاً وكان اشد النـاس قساوة واقلهم رحمة ابو طاهر نفسه فكان ينتقل من مكان الى مكان آخر في الكعبة والمدينة ومن جماعة الى جماعة اخرى وهو يدعر اصحابه وقـد ثملوا بسروره الفتح وما غنموه من المال والحلى ان اجهزوا « على الكفار وعبدة الاحجار » .

كان ينتظر ان يكون لهذه المصيبة العظمى التي اصابت الاسلام وقع شديد على جميع المسلمين وخليفتهم في بغداد وتكون من وراء ذلك حركة طيبة تؤدي الى جمـــع قوى المسلمين المادية والروحية ووضع حد لغزوات القرامطة وفظائعهم ولكن انى ذلك ولم يبق لخلفاء بني العباس في هذا الوقت الا الاسم ولم يبق من عزهم السابق الا الالقاب الطويلة .

فالسلطة الحقيقية في هذا العصر كانت في الحقيقة في ايدي امراء الجيش واكثرهم من الاتراك ثم في ايدي اصحـــاب الدواوين والوظائف العالية واكثرهم من الفرس وغير العرب الذين لم تكن تهمهم الا مصالح دواوينهم ومنافعهم الشخصية ومن شذ عن هـذه القاعدة التي كادت تكون عامة ، كرئيس الحكومة الوزير العاقل الفاضل عـلي بن عيسى كان عاجزاً عن بث روح جديدة في جسم

الدولة المريضة وحفظها من الانحلال السريع فكأنه هو ايضاً كان يشعر بدنو اجل دولة المنصور فلم تكن له قدرة على تنجيتها او رغبة في توثيق عراها . ولهذا لم تحدث واقعة مكة في بغداد الا ضجيجاً لم يخف امره عـــلى القرامطة الذين كانوا يعرفون حقيقة الحال في عاصمـة بني العباس بواسطة اتباعهم هناك الذين كانوا يرسلون لهم الاخبار مع الحمام .

مضى على نكبة الحجاز ما يزيد عن سنة وحكومة بغداد لم تبد حركة يستدل منها عـلى انها تنوي تعقب القرامطة للأقتصاص منهم اووضع حد لغاراتهم في المستقبل . فلمـــا رأى القرامطة ضعف الحكومة وايقنوا انها عاجزة عن قتالهم قرروا ان يستفيدوا من هذه الحالة فزحفوا على عمان واحتلوهـا سنة ٣١٨ — ٩٣٠ فكان احتلالهم لها احتلالاً لجزيرة العرب كلها لمـا لعمان من الاهميـــة الاقتصادية والحربية ولان في الاستيلاء على البـــلاد المذكورة تأميناً على الجيش القرمطي من الخلف ، وهـذا مكن ابا طاهر من الزحف في السنة الآتية على الكوفة واحتلالها والكوفة كما يعلم القارىء مفتاح بغـداد وحصنها الحصين فلو اراد ابو طاهر ان يدخل في تلك السنة بغـداد ويجهز بذلك عـلى سلطة بني العباس لاستطاع الا انه اكتفى باخذ الكوفة ونهبها حسب عادته ثم تركها وعاد الى عاصمته .

وكان رجوعه امـــا لاسباب داخلية او بأمر من خليفة مصر الفاطمي ولاعتبارات فلكية كانت القرامطة تثق بها وتبني عليها اموراً كثيرة في حياتها الاجتماعية والفردية . على كل حال يظهر

ان رجوع ابي طاهر الى عاصمة بلاده وتأجيله فتح عاصمة خصمه الاكبر لم يكونا عن ضعف او تردد في وجوب فتح بغداد بل عن اسباب عرضية اضطرته الى ارجاء ضربته الاخيرة لدولة بني العباس الى فرصة اخرى كما يستفاد من بعض المصادر لان الظروف لم تسمح لابي طاهر ان يقوم بوعده في القريب العاجل وهذه الظروف هو ما وقع بين القرامطة من الفتن الداخلية التي احدثها بينهم احد مشعوذي خراسان فالهاهم بها عن متابعة حروبهم مع جيوش الخليفة واضعف قواهم المادية والمعنوية فاضطروا ان يتربصوا حتى اذا دخل عام ٣٢٥–٩٣٧ – زحف ابو طاهر مرة اخرى على الكوفة فاحتلها واضطر الخليفة ان يعقد معه هدنة ويؤدي له مئة وعشرون الف دينار كل سنة ويعطي عن كل حاج ضريبة معلومة ثم هو لم يكتف بذلك بل اخذ يتدخل من السنة المذكورة في سياسة بغداد ويؤثر على سير الاعمال فيها .

بقيت الامور على هذه الحالة نحو نصف قرن لم تؤثر فيها وفاة ابي طاهر ٣٣٢-٩٤٢ لان خلفاؤه واكثرهم من ابنائه وانسبائه الاقربين ورثوا عنه كثيراً من صفاته الايجابية كالشجاعة وحسن الادارة والميل الى تضحية المصالح الشخصية في سبيل المصلحة العامة والاهتمام بما يعود على الزارع والعملة بالخير والاخلاص للنظام الجديد الذي سنه مؤسس مذهب القرامطة في البحرين وحافظ عليه ابو طاهر الى آخر يوم من حياته . اضف الى ذلك ان خلفاء ابي طاهر كانوا قد اكتفوا بما فتحه من البلاد ولم يعودوا يتطلعون الى فتوحات جديدة لا سيما وان دولة بني العباس كانت قد سقطت بعد

سنة من وفـــاة ابي طاهر وقامت محلها دولة جديدة قوية تعرف بدولة بني يدوية الشيعية التي اخـذ خلفاء ابي طاهر يطلبون ودها ويتقربون منها لما بينها وبينهم من القرابه المعنوية وذلك بعد ان كادت تتوتر بينهما العلائق وتؤدي الى مالا تحمد عقباه ولهذا لم نعد نسمع شيئاً عن غزوات القرامطة وحركاتهم الى سنة ٣٥٣ – ٣٦٤ فكأنهم عدلوا للاسباب التي ذكرناها عن الغزو والنهب واشتغلوا بالمتاجرة مع جيرانهم الاقربين واصلاح احوالهم الداخلية وتعزيز نظامهم الاجتماعي الجديد وتطبيق عيشتهم ، عليه وبالحقيقة ان ما نعرفه عن جمهورية البحرين في ذلك العصر لا يدع محـلا للشك في انها بلغت في الرقي في اقتصادياتها ومعداتها الحربية واخلاقها وآدابها حداً جعل اكثر البلاد الاسلامية تحسدها عليه وتتمنى لو يتاح لها ان تبلغ هـــذا الرقي الذي لم تبلغه جمهورية القرامطة الا بنظامها الجديد الذي ادخلوه على حياتهم لاول مرة في تاريخ الاسلام .

هـــذا ما يتعلق بتاريخ الحركة القرمطية في البحرين اما ما يتعلق بنظامهم الداخلي فيمكننا ان نلخصه استناداً على ما عندنا من اخبار القدماء عنه في العبارات الآتية .

ذكرنا في مـــا سبق ان مؤسسي الجمهورية القرمطية او الاسماعيلية في البحرين كانوا من عامة الناس وانهم كانوا يدعونهم الى الدخول في المذهب الجديد باسم ( امام الزمان المحجوب ) ثم باسم الخلفاء الفاطميين من يوم ظهرت هذه الدولة وهذا يدل على ان القرامطة كانوا في بادىء الامر يقرون برئاسة الخلفاء المذكورين الروحيـــة والسياسية ، فكانوا يجمعون الضرائب والزكاة باسمهم

ويؤدون اليهم قسماً كبيراً منها وكانوا يساعدونهم بالمال والرجال في حروبهم مع خلفاء بغداد ويأتمرون بامرهم في كل شيء حتى انهم لم يحجموا عن التضحية في سبيلهم .

ومما يستدل منه على ان ابا طاهر وابا سعيد وخلفاءهما لم يكونوا في الحقيقة الا عمالا لامام الزمان في البحرين يحكمون البلاد باسمه ويؤدون له الطاعة . الا انه يظهر من بعض افعال القرامطة هناك ان بعد المسافة بينهم وبين امامهم واسباباً اخرى نذكرها بعد ذلك جعلت صلة القرامطة بالفاطميين ضعيفة وادت الى نوع من الاستقلال الداخلي والحكم الذاتي في البحرين وهو اقرب الى الحكم الجمهوري والشوروي منه الى حكم الفرد نعم لا ننكر انه كان يرأس حكومة القرامطة افراد اسرة ابي طاهر الجنابي او المقربين اليها مما قد يحمل البعض على الظن ان حكومة البحرين كانت اقرب الى حكومة الاقلية المستبدة منه الى الجمهورية الحقة ، الا ان هؤلاء الافراد لم يكونوا ليمتازوا عن غيرهم من الوزراء او اعضاء المجلس الاداري المعروف عندهم ( بالعقدانية ) الا في امور معلومة كقيادة الجيش وترأس مجلس الوزراء والاشراف على بعض الاعمال الثانوية فهم والحالة هذه اقرب الى رؤساء جمهوريات اميركا الجنوبية في هذا العصر منهم الى امراء العرب والعجم في ذلك الوقت الى انهم كانوا ( الاولين بين الاسواء ) كما تقول العبارة اللاتينية ، اما القوة الحقيقية الى قوة التشريع والتنفيذ كأنها كانت محصورة في ايدي اعضاء المجلس المؤلف من ستة اشخاص او وزراء يختارهم الشعب من اسرة العالية في الحزب

وكان لهؤلاء الوزراء ستة وكلاء يجلسون وراءهم على تخت عال او على مقاعد الوزراء ان هم تغيبوا لسبب ما عن حضور الجلسة . والذي نعلمه من امر هـذا المجلس المعروف ( بالعقدانية ) انه كان يسوس البلاد ويحل ما يعرض عليـــه من المسائل بالاجماع وان جلساته كانت غالباً تحت رئاسة ابي طاهر او نسيبه ( أخي امرأته ) الى محمد سنبر احد رجال البحرين المعروفين بكرمهم وعدالتهم ، وتعلق الشعب بهم .

جاء في ( سفر نامة ) لناصر خسرو الذي زار بلاد القرامطة سنة ١٠٥٢ ، اي بعد ابن موقل بسنين عديدة ما يثبت قول هذا الكاتب ويدل على ان عرى المحبة والوفاق بين القرامطة ما زالت موثقة حتى تلك السنة ، فقد ذكر في سياحته المذكورة ماتعريبه : « واحفاد ابي سعيد يقيمون الآن في قصر واسع يعرف بدار الهجرة وهذا القصر هو دار الحكومة ايضاً حيث يوجد التخت الذي يجلس عليه الوزراء الستة الذين يضعون الاحكام بعد ان يبحثوا فيها ويتفقوا على رأي واحد ، ولهؤلاء الوزراء ستة مساعدين يقعدون على تخت آخر وراءهم ، ولا يقرر المجلس امراً الا بالشورى والفضل في هذا الوفاق يرجع الى الشرطة او الى قوة حربية اخرى لانعلم عنها شيئاً بل الى النظام التقدمي الجديد وثقة الشعب به وبزعمائه » . والغريب في كلام ناصر خسرو انه لم يذكر شيئاً عن رئيس المجلس العقدانية مما يستنتج منه اما انه لم يكن وقتئذ رئيس لهم واما انهم اتفقوا ان لايكون لهم رئيس بعد ابي سعيد وابي طاهر واولادهما وذكر اكراماً لمؤسس الجمهورية وتعظيما لقدرهم او خوفـــاً من

استبداد خلفائهم ونبذهم للمبادىء الاشتراكية التي اسست عليها دولتهم واسباب اخرى لم يذكرها الكاتب المذكور ولم نقف نحن عليها عند غيره . نعم ان احفاد ابي طاهر واقرباءه ظلوا محافظين على نفوذهم وبعض امتيازاتهم الى يوم خسرو وربما الى مابعد ذلك الا انهم لم يكونوا ينتخبون لرئاسة مجلس العقدانية الا نادراً فكانت السلطة محصورة في ايدي الوزراء واعوانهم واكثرهم كما رأينا من اسرة مؤسس الجمهوريه القرمطية واقربائه ، فاذا صح ذلك كانت هيئة الحكم في البحرين اقرب الى حكم الجمهورية الروسية في الوقت الحاضر ، اي حكومة شورية يرأسها مؤسس الجمهورية مادام حياً ثم اعوانه الاقربون بعد وفاته .

وعليه نستطيع ان نقول ان لكل نظام اجتماعي هيئة ادارية خاصة به هي وليدته كما يظهر لكل من قابل بين نظام القرامطة في العصر العاشر ونظام روسيا اليوم ، ولولا ضيق المقام لاتينا على مقارنات عديدة بين النظامين لا تدع مجالاً للشك في صحة الفكر الذي ذكرناه قبل ذلك ، ولا غرابة في ذلك لان مصدر القوة عند الفريقين واحـــد وهو الطبقة السفلى من الشعب او طبقة العمال والمزارعين وهم الاكثرية المتغلبة عند القرامطة لما يستنتج من كلام ابن الاثير عن اهل العراق .

استقلت البحرين وما جاورها من البلاد التي فتحها القرامطة من ايام ابي طاهر واولاده عن الدولة العباسية واصبح امرها اليها تسير في حياتها الداخلية والخارجية على نظام جديد سنته هي لنفسها لايعارضها في تطبيقه معارض فكانت اول خطوة خطتها العقدانية

نحو اصلاح البلاد وسعادة اهلها انها ألغت الضرائب التي على الاراضي ثم الغت او خفضت بعض الرسوم التي كان يئن تحتها الزارع والعامل واخذت تبحث عن موارد اخرى تقوم باحتياجات الدولة ولا يشعر السكان بثقلها ، فكان من جملة تلك الضرائب الجديدة ضريبة على المراكب التي كانت تمخر في خليج العجم ثم ضريبة على مقاطعة عمان وعلى الحجاج الذين كانوا يؤمون الحرمين كل سنة ، فضريبة اخرى على صيادي اللؤلؤ في مياه البحرين وخليج العجم . فاذا اضفنا الى هذه الضرائب الغرامة التي كانت تؤديها كل سنة بعض مدن وقرى العراق والكوفة وغيرهما كان لنا من كل ذلك نحو مليون ومئتي الف دينار في السنة ليس منها الا ثلاثون الف كانت تؤخذ عن الاراضي بصورة اعشار او خراج ومقدار طفيف يكاد لا يستحق الذكر لا سيما اذا تذكرنا ان اراضي البحرين وعمان كانت ولا تزال من اخصب اراضي جزيرة العرب ، وقد عرفت بجودة ثمرها الذي كان ولا يزال يحمل منها الى البلاد البعيدة وكان من البضائع التي كانت حكومة القرامطة تتاجر بها مع جيرانها الاقربين كبلاد العجم والعراق وسوريا ، وعليه يجوز ان يقال ان مالية البحرين بلغت في عهد القرامطة درجة لم تبلغها ، على ما اظن ، في دور آخر من ادوار تاريخها . فلو طرحنا من الميزانية المذكورة قسما كانت القرامطة ترسله سنويا الى صندوق ( الامام ) او الى خزينة الامام ، كما كانوا يعبرون في ذلك الوقت وقسما آخر اكبر منه كان ينفق على دار الهجرة او دار الحكومة واسرة ابي طاهر لبقيت فيمة كبيرة كانت تنفقها الحكومة على الاشغال والمنافع

العمومية، اي على تحسين احوال المزارعين والعمال وابتياع الاراضي لتوزيعها على المحتاجين اليها .

اننا نأسف ان ما لدينا من الاخبار عن النظام الجديد في البحرين لا يكفي لحل مسألة تتعلق بهذا النظام وهي ملكية الاراضي او عدمها ، اي هل بقيت الاراضي في ايدي اشخاص معلومين يتصرفون فيها كيف يشاؤون ام اصبحت شائعة في يد الحكومة تعطيها لم تريد ويقدر ان يعتملها بيده على انه يظهر من بعض اقوال الكاتب الفارسي التي سنأتي عليها فيما بعد ان الحكومة لم تتعرض لنزع الاراضي من ايدي اصحابها اما لان اكثرهم كان مشاعاً بين المزارعين كما هي الحال عند البدو على الاطلاق واما لانه لم تكن هناك مسألة تعرف بمسألة الاراضي اي لم يكن في البحرين ازمة ارضية او فلاحون لا أراضي لهم كما هي الحال اليوم في اكثر البلاد الاوربية او ان الحكومة كانت تبتاع على حسابها ما تحتاج اليه من الاراضي لتوزعه على الفلاحين الذين لم تكن لهم اراضي يعتملونها بايديهم . هـــذا ما يتعلق بالاراضي اما ما عدا ذلك من اركان الحياة الاجتماعية وظواهرها والحياة الفردية ومعالمها فان الصبغة الاشتراكية كانت ظاهرة عليها والحكومة القرمطية عاملة على نشرها وتأييدها بكل ما لديها من الوسائل . ذكر الكاتب الفارسي الذي استشهدنا به مراراً انه رأى يوم كان في الاحسا ثلاثين الفاً من السودان يشتغلون في الحقول والبساتين على حساب العقدانية وهي الحقول التي اشترتها بمال الامة وان الشعب هناك لم يكن يؤدي لحكومته ضرائب ولا اعشاراً وانه اذا كان يصيب احدهم فقر او كان يقع تحت دين لا سبيل الى

وفائه كانت العقدانية تسلفه ما يحتاج اليه من الدراهم الى ان يصلح حاله وكان اذا استدان من احد دراهم لا يدفع له عند حلول الأجل الا ما استدانه فقط اي بلا رباء وقال في مكان آخر من سياحته: ان كل غريب يدخل الأحسا ويعرف حرفة ما كانت الحكومة اذا اراد تقدم له مبلغاً من النقود لينفقه على اشتراء ادوات حرفته ويبقى تحت تصرفه الى ان يجمع من المال ما يكفيه ويكفي اسرته فان هو اشتغل وكسب رد ما استلفه الى الحكومة بدون ربا وقال ايضاً: اذا اصابت صاحب بيت او طاحون مصيبة وكان عاجزاً عن ردها والتخلص منها بنفسه امدته العقدانية بعدد معلوم من الفعلة السود ليصلحوا ما تصدع من بيته او طاحونه بلا عوض وزاد الكاتب المذكور على ذلك ان في الاحسا طواحين تخص الحكومة وهي تطحن للناس قمحهم مجاناً اي بدون اجرة لان الحكومة نفسها تنقد الفعلة اجورهم وتقوم بجميع نفقات الطواحين.

نحن لا ننكر انه قد يكون طرأ على حياة القرامطة ونظامها الداخلي بعض التغير في ايام ناصر خسرو الا ان الصبغة الاشتراكية على الاطلاق ما زالت ظاهرة على حياة البلاد وسكانها الى الجيل الخامس عشر او الى ما بعد ذلك وكان من اهم ظواهرها انه ولم يبق في البلاد فقير وان مجلس العقدانية ضرب نقوداً جديدة لم تكن متداولة الا في البحرين والبلاد المتاخمة لها وكان غرضه من ذلك ان ان تبقى النقود في البلاد ولهذا سكها من رصاص فكانت لذلك رخيصة جداً حتى ان من اراد ان يبتاع شيئاً في السوق كان مضطراً ان يملأ من تلك النقود زنابيل يضع في كل منها ستة آلاف درهم.

هذا جل ما عثرنا عليه عند كتبة العرب والفرس من الأخبار المتعلقة بالقسم الاجتماعي والاقتصادي من برنامج القرامطة وها نحن الآن نأتي على ما وجدناه عندهم من المعلومات التي لها مساس بمبادئهم الادبية والدينية مما لم نذكره عند كلامنا عن الاسماعيلية او ذكرناه بصورة عامة موجزة ،

ان قيام الجمهورية العربية الاشتراكية في البحرين كل هـــذه السنين الطوال وحفظ نظامها الغريب وتأثيره اكثر من خمسة اجيال ثم بلوغها ذلك النجاح الاقتصادي الذي اشرنا اليه سابقاً وذلك مع ما كان يحيط بها من الصعوبات وتعدد الخصوم المتشوقين الى هدمها والاستيلاء على ثروتها لاكبر دليل على ان الجمهورية المذكورة كانت قائمة ليس فقط على دعائم اقتصادية واجتماعية قوية بل على اسس دينية قوية ومبادىء اخلاقية صحيحة كانت تتجلى في حياة المجموع والافراد على السواء فقد رأينا حين تكلمنا عن مجلس العقدانية ما كان عليه اعضاؤه من الاتفاق في القول والعمل وهناك شواهد اخرى على ذلك لا بأس من ذكر بعضها تثبيتاً لما قلناه قبلاً وتعميماً للفائدة .

ان ابن حوقل الكاتب والسائح الشهير كان اقام بين القرامطة اشهراً عديدة ودرس نظامهم وحياتهم اليومية عن كتب فذكر عنهم اموراً كثيرة تخالف ما يتهمونهم به من الافعـــال البذيئة والمبادىء السافلة وتدل على احترامه لهم واعترافه بفضلهم وادبهم وحسن سيرتهم ثم زارهم بعده المقدسي وكتب عنهم فصلاً في رحلته لم يذكر فيه ما يمس كرامتهم ويشوه سمعتهم وجاء بعده الكاتب

والشاعر الفارسي ناصر خسرو فاقام بينهم اشهراً يراقب فيها حياتهم الأجتماعية والفردية ويتعرف بكبيرهم وصغيرهم ويتردد الى مجتمعاتهم ليقف على افكارهم واخلاقهم ويطلع عليها قراءه وابناء وطنه فلو رأى منهم ما يخالف المبادىء الادبية العامة لاشار الى ذلك في سفر نامة ولأنحى عليهم باللائمة وصورهم بغير الصورة التي نراها في كتابه حيث جاء ان ابا سعيد اوصى خلفاءه واشياعه ان يعاملوا الشعب بالعدل والشرف وقال في محل آخر ( انه اذا دخل انسان على عضو من اعضاء العقدانية وحياه او سأله شيئاً اجابه ذلك العضو بكل رقة وتواضع وقال عن سكان الاحسا انهم لايشربون خمراً لا لانه كان محرماً عندهم بل محافظة على النظام ثم اننا نستنتج من كلام خسرو واقوال غيره ان الزنا لم يكن معروفاً او شائعاً عند القرامطة بل لم يكن شائعاً عندهم كما ارجح ــ تعدد الزوجات بدليل ان جميع ابناء ابي سعيد كانوا من ام واحدة وليس هذا من الغرابة في شيء لان الامتناع عن المسكرات والفسق نتيجة منطقية لتعليم القرامطة عن الغرض من وجود الانسان على هذه الارض وغاية هذا العالم القصوى ومن التهم التي اتهم بها القرامطة خصومهم والا كاذيب التي كانوا يختلقونها عنهم لاعراض مفهومة وهو وصفهم اياهم بالرياء وعدم الاخلاص في النية وقد استدلوا على ذلك بان القرامطة كانوا يتظاهرون بحب علي وبيته ويتشيعون له ولاصحابه لاحبا به وبشيعته كما يقولون بل لقضاء حاجتهم ومنافعهم الشخصية والحزبية وبلوغ مآربهم السياسية وقد استدلوا على ذلك بان ابا طاهر لم يزر ولا مرة قبر علي او ابنه الحسين مع انه كان في القرب منهما مرات عديدة

وانهم بعد ان حاربوا في جانب الخلفاء الفاطميين وساعدوهم مراراً على اعدائهم خذلوهم بعد ذلك بل خرجوا عليهم سنة ٣٩٠ – ٩٧١ وانضموا الى عدوهم الاكبر الخليفة العباسي وصاروا يساعدونه عليهم

نحن لا ننكر هذه الحوادث الا اننا نعللها بغير ما يعللها خصوم القرامطة فتوقف ابي طاهر عن زيارة قبري علي وابنه الحسين لا يدل على بغضه او عدم حبه لهذين الشخصين اللذين كانت الاسماعيلية على الاطلاق تحترمهما بل على ان القرامطة كانت تحرم زيارة القبور وتقبيلها كما هو الحال عند الوهابيين اليوم اما الدليل الثاني فمبني اما على جهل لتاريخ الحركة القرمطية في البحرين واما على تجاهل يراد به اخفاء الحقائق التاريخية او اظهارها في غير صورتها الحقيقية واليك بيان ذلك .

من المحقق ان علاقة القرامطة بالفاطميين كانت علاقة ودية ملؤها الأخلاص والطاعة وانهم كانوا في اول الحركة الفاطميين يساعدونهم بالمال والرجال ويظهرون لهم الطاعة والمحبة لا لانهم كانوا يخشون بأسهم بل لانهم كانوا يعتقدون ان مؤسس الدولة الفاطمية عبيد الله هو حقيقة ( امام الزمان ) والمهدي المنتظر وآخر انسان يخسم فيه العقل الاعلى ، أي هو ذلك الانسان الذي كانت القرامطة وسائر فرق الاسماعيلية تنتظره وتعول عليه في دك دولة الظلم واقامة دولة العدل والمساواة ومملكة السلم والمحبة ، الى غير ذلك الآمال التي كان ولا يزال اصحاب الامام المحجوب يعلقونها على ظهوره ، إلا ان اباطاهر واصحابه اخذوا يدركون مع الزمن ، وبعد ان تعرفوا بالفاطميين في سوريا ومصر وشاهدوا عيشتهم

واعمالهم هناك وما ادخلوه من الانظمة الجديدة في مصر وشمال افريقيا ان مؤسس هذه الدولة افاق كاذب ومرق محتال كبير ، لا صلة بينه وبين الامام السابع اسماعيل بن جعفر ولا نسب وان هذا الامام الكاذب خدعهم واستخدمهم آلة للوصول الى غاياته الشخصية فلما صح عند القرامطة هذا الخبر كان له وقع شديد على هؤلاء الأعراب الذين عرفوا دائماً بسذاجتهم وصفاء قلوبهم فثار غضبهم على مؤسس الدولة المذكورة واولاده فقطعوا علاقاتهم بهم واخذوا يتقربون من اعدائهم الذين اصبحوا في نظرهم خيراً من حلفائهم السابقين الكاذبين فنتجت عن ذلك حروب كلفت الفاطميين ضحايا لا تحصى وخسائر مادية لاتعـــد لان القوة كانت في اغلب الاحيان في جانب القرامطة فاضطر خلفاء القاهرة ان يلجأوا الى سياسة الدفاع بعد ان كانوا قبل ذلك يفضلون عليها سياسة الهجوم ولعل هذاهو الذي اضطرهم بين ٣٧١–٣٨٥ الى بناء قلعة القاهرة عاصمة مصر اليوم ، للدفاع عن عاصمتها القديمة المعروفة سابقاً بالقسطاط ولم يقف القرامطة عند هذا الحد بل اخذوا يتقربون من حكومة بغداد ويعقدون معها المعاهدات السياسية والتجارية ويكاتبون خلفاء بني العباس ويهدون اليهم الهدايا ، وهم مع كل هذا محافظون على حقوقهم ومصالحهم غير متساهلين في شيء مما له مساس بعقائدهم الدينية والادبية ونظامهم الاشتراكي ، فهل ذلك رجوع عن المبدأ او شيء من الرياء والمداهنة ؟ .

بناء على ذلك لا صحة لما يتهم به القرامطة اعداؤهم من الصفات السلبية المذكورة بل انا اعتقد ان كل من وقف على تاريخ القرامطة

في البحرين وطالع ما حفظ من اخبارهم متوفعاً عن الغرض وغير منفعل بانفعالات شخصية يشعر باخلاص هـــذه الاخوية وصدقها وصفاء قلوب اعضائها وهذا المستشرق الهولاندي M. de Goeje الذي جمع اخبارهم المبعثرة ونظر فيهـــا نظرة عالم لا يطلب غير الحقيقة المجردة ثم وضع فيهم كتابه الذي استشهدنا به في هذا الفصل يقول فيهم : اني مع ما اعرفه عن تلك السنن الشيطانية التي سنها حسن ابن القداح للاسماعيلية اعتقد اعتقاداً قويا ان القرامطة وعلى الاخص قرامطة البحرين كانوا يعملون عن اعتقاد راسخ فيهم بانهم يخدمون عملا طيباً ، ومعلوم ان الايمان القوي في صحة مايكرس له الانسان او الجماعة حياته وحياتهم هو الذى يتغلب على جميع الصعوبات ويأتي بالمعجزات ، واني والحق اولى ان يقال اشعر بهذا الايمان في اقوال القرامطة وافعالهم ، ولو خالطها احياناً شيء من القساوة وغلظة البداوة . حدث ابن الاثير في ( كامله ) عن رجل من القرامطة كان يسكن في بغداد قال :

جاء إنسان الى علي بن عيسى ( وزير الخليفة المقتدر ) واخبره ان في جيرانه رجلاً من شيزار على مذهب القرامطة يكاتب اباطاهر بالاخبار فاحضره وسأله واعترف وقال : ما صحبت ابا طاهر إلا لما صح عندي انه على الحق وانت وصاحبك كفار تأخذون ماليس لكم . فقال له علي بن عيسى قد خالطت عسكرنا وعرفتهم ، فمن منهم على مذهبك ؟ فقال : وانت بهذا العقل تريد الوزارة كيف تطمع مني انني اسلم قوماً مؤمنين الى قوم كافرين يقتلونهم لا افعل ذلك اذ عندنا بالدين وشعائره مايفهم منها اليوم او ما ألفه الشعب

البسيط من معنى هذه الكلمة فيصح ان تقول انه لم يكن للقرامطة دين او شعائر دينية تذكر ، ولو استعمل احياناً زعمائهم و كتبتهم من المفردات والاصطلاحات المتداولة بين اصحاب الدين ما قد يوهم السامع الغر الواقف على مذهب القرامطة ان لهم ديناً وشعائر دينية كغيرهم من معاصريهم من المسلمين وغير المسلمين ، إلا ان القرامطة كأعراب من جهة واسماعيلية من جهة اخرى كانوا بعيدين عن الدين وشعائره الخارجية اذان دينهم الحقيقي هو مطلبهم الكبير الاجتماعي الذي كانوا يعبدونه ويؤمنون بوجوب تحقيقه ايماناً قويا يحيون لاجله ويموتون عليه . نحن لانذكر ان للقرامطة بعض عقائد دينية بمعنى هذه الكلمة المعروف كاعتقادهم مثلاً بتجسد الله الدوري او تجسم العقل الاول في أئمتهم او المهديين او الرجال العظماء والحكماء الذين وكل اليهم امر تحقيق المطلب الاكبر الاشتراكي ، قال القرمطي الشيرازي المذكور آنفاً : «انه لا بد لله من حجة في ارضه وان امامنا المهدي هو محمد حفيد محمد ابن اسماعيل بن جعفر الصادق إلا ان هذه العقيدة هي اقرب الى فكر سياسي منها الى عقيدة دينية محضة . ثم لايقرنا ان القرامطة كانوا يبنون تحقيق احلامهم الاشتراكية على رجل من نسل علي لا من بيت آخر ، لان حبهم لبيت علي لم يكن منهم الا خطة سياسية وسبباً متيناً يربطهم بغيرهم من الشيعة ويستميل اليهم قلوب الناقمين من بني العباس والا فسواء عندهم الامام مخلص هذا العالم ومهديه من ابناء علي او من بيت آخر لانه لم يكن يهم القرامطة الا مبدأهم الاساسي وهو ايمانهم بامكان تحقيق مطلبهم الاكبر الاشتراكي في هذه الحياة الدنيا ، اما من

يحقق هذا المطلب فهذا في نظرهم امر ثانوي وفي نظر زعماء الحركة لا اهمية له البتة ، لانهم كانوا يعتقدون ان تحقيق آمالهم واحلامهم السياسية منوط بأي شخص تجسمت فيه الحكمة العالية والعقل الاعلى الذي هو الله على حسب اعتقادهم .

ترى مما ذكر ان ديانة القرامطة لم تكن في الحقيقة الا عبارة عن عبادة العقل السليم او العقل الاعلى ، ولهذا لم تكن عندهم شعائر او طقوس دينية ولا كانت لهم حاجة اليها ، وهذا ما انتبه اليه الكتبة المسلمون واشاروا اليه مراراً بقولهم ان القرامطة ينكرون الرسل والشرائع كلها » . وانهم تأولوا لكل ركن من أركان الشريعة تاويلاً بورث تضليلاً فزعموا أن معنى الصلوة موالاة امامهم والحج زيارته وادمان خدمته والمراد بالصوم الامساك عن افشاء سرهم بغير عهد ولا ميثاق وزعموا ان من عرف معنى العبادة سبط فرضها وحملوا اليقين على معرفة التأويل ومع ذلك فهم لم يكونوا يمنعون المسلمين المقيمين بينهم من بناء المساجد واقامة الصلاة وسائر اصول الدين وشعائره . قال ناصر خسرو ما تعريبه ( ليس في الاحسا مسجد تقام فيه صلاة الجمعة وهم لا يخطبون ولا يصلون الا انهم سمحوا ببناء مسجد على حساب احد الفرس السنيين ) وقال بعد ذلك ولا يمنعون هنا احداً من اقامة الصلاة أما هم فلا يقيمونها .

إنا لنأسف جداً ان انقطاع الاخبار او ندرتها عن القرامطة البحرين بعد النصف الثاني من الجيل الحادي عشر الناتج عن بعد بلادهم عن مراكز العمران العربي الاسلامي وعما أصاب البلاد

العربية والخلافة الاسلامية من المحن في ايام الاتراك والمغول يحولان دون الوقوف على تاريخ الجمهورية الاشتراكية في شرق الجزيرة العربية بعد العصر المذكور وعلى ما طرأ على نظامها الاشتراكي من التغير قبل ان تتفكك عراها وتصبح في خبر كان ، فكل ما يمكننا ان تستنتجه من اقوال بعض الكتبة المتأخرين عن حالة القرامطة بعد الزمن المذكور هو ان حروبهم الخارجية مع سلاطين بغداد وخلفائها ومع القبائل المجاورة لهم ثم ما وقع من الاختلاف في بيت ابي طاهر واقربائه كقتل ابنه سابور سنة ٣٦١ – ٩٧٢ وانقراض اعضاء مجلس ( السادة ) القدماء أدى كل ذلك ولا ريب الى اضعاف قوة القرامطة واطمع بهم جيرانهم واعداءهم الذين كانوا يتحينون الفرص ليفتكوا بهم ويقضوا عليهم وعلى نظامهم الممقوت، إلا ان هذا الدور لم يكن طويلاً ودليلنا على ذلك ان جعفر احد احفاد ابي سعيد الجنابي التقى سنة ٣٦٨ – ٩٧٨ بعساكر الفاطميين فكسرهم واضطرهم الى الفرار وان ابا بحر ابن شاخويه احد قواد القرامطة زحف الى الكوفة واحتلها باسم السلطان عضد الدولة البويهي ٩٤٩–٩٨٣ مما يستنتج منه ان احوال القرامطة في الوقت المذكور كانت لا تزال حسنة وكلمتهم عالية وهيبتهم محفوظة حتى ان سلاطين بغداد كانوا يطلبون ودهم ومساعدتهم ويتقربون اليهم بالعطايا والكتب الى ان هطلت سنة ٣٧٤– ٩٨٤ حين أخذ نجمهم بأفل وحالهم يسوء وأول ما ظهر ذلك من حربهم مع السلطان صمصام الدولة ٩٨٩ – ٩٩٤ ) م . التي انتهت بكسرهم ورجوع فلولهم الى البحرين فلم يكد هـذا الخبر ينتشر بين جيرانهم حتى

خرجت عليهم سكان اواسط جزيرة العرب وانفصلت عنهم ثم تبعهم سكان عمان سنة ٣٧٥ - ٩٨٥ وقبائل المتفق التي انقضت عليهم سنة ٣٧٨ - ٩٨٨ وكسرتهم شر كسرة ثم تعقبتهم الى عاصمتهم التي التجأ اليها القرامطة فحاصرتهم فيها لكنها لم تقو على فتحها فتحولت عنها الى القطيف ففتحتها وغنمت فيها غنائم كثيرة حملتها الى بلادها. فكان لهذا الفشل اثر سيء على حالة القرامطه الاقتصادية والداخلية اثار بينهم إستياء عاماً ادى الى نزاع السطة من ايدي احفاد ابي سعيد الجنابي وتسليمها الى رجال آخرين حاولوا أن يسيروا على خطة من السياسة جديدة فأخذوا يتقربون من الفاطميين اخوانهم القدماء ليستندوا عليهم في حروبهم مع البدو وسلاطين بغداد أو ليضمنوا حيادهم . إلا ان هذه السياسة الجديدة لم تجدهم نفعاً بل كانت عاقبتها شراً من السياسة الاولى لأن سلاطين بغداد أخذوا يراقبون حركاتهم وسكناتهم ويخشون تقربهم من الخلفاء الفاطميين حتى اذا اطلعوا على مكاتباتهم مع أولياء مصر انقلبوا عليهم فأوعزوا الى الاعراب ان تخرج عليهم فخرجت وحاربتهم وكادت تقضي على استقلالهم فاضطروا ان يلزموا بلادهم ويكفوا عن نشر دعوتهم في ما وراء البحار .

كان ينتظر ان تتبدل هذه الحال باحسن منها في ايام الحاكم بامر الله ٩٩٦ - ١٠٢١ - الذي عرف بميله الى مذهب المتطرفين من الاسماعيلية او في ايام الخليفة الظاهر حين كان الفاطميون ينتظرون سقوط دولة بني العباس فلما لم تتحقق هذه الاماني المبنية على اسس فاسدة رأى القرامطة ان يخلدوا الى السكينة وان لا

يفكروا إلا في المحافظة على استقلالهم وتقوية نظامهم الداخلي الذي ظلوا محافظين عليه زمناً طويلاً كما يظهر من كلام ناصر خسرو الذي زارهم في أواسط سنة ٤٤٣ - ١٠٥٢ واقـــام بينهم نحو نصف سنة .

مما يستفاد من أقوال خسرو ان النظام الاشتراكي كان لايزال معمولاً به بين القرامطة في أواسط العصر الحادي عشر وان القرامطة كانوا يدعون في ايامه « ابو سعيديين » نسبة الى ابي سعيد مؤسس جمهوريتهم وانـــه كان على رأسهم أحد احفاده المعروفين يومئذ ( بالسادة ) مما يستدل منه على انه قد حصل بعض تغير في هيئـــة الادارة عنـد القرامطة ثم يستفاد من كلام الكاتب المذكور أن حالة البلاد كانت حسنة والتجارة رائجة بفضل احتكار الدولة لها وسياستها الاقتصادية العادلة وان الشعب كان مطمئناً راضياً عن حالته من كل الوجوه لأن خسرو لم يسمع احـــداً يشكو من الحكومة او يتذمر من عمالها أو من النظام الجديد الذي أدخلته الى البلاد وقـــد ذكر اشياء تدل على ان موارد العيش كانت كثيرة وان النـــاس كانوا في بحبوحة عيش لا ينقصهم شيء من الضروريات « وفي الاحسا يكثر البلح حتى ان الناس يعلفون به الغنم وهم يبيعون الالف منه بدينار ١ » ولهـــذا كانت البحرين موضع حسد جيرانهـــا ومطمح ابصارهم يودون لو يقضون عليها ويستولون على خيراتها وكان اشد النـــاس طمعاً بثروة القرامطة اقرب الناس اليهم نسباً واشرهم الا وهم عرب البادية الكسالى

الجياع الذين كانوا ولا يزالون حتى اليوم عالة على غيرهم يعيشون من النهب والسلب فكانوا يتحينون الفرص لينقضوا على الجمهورية الغنية المغضوب عليها ويفنوها ان استطاعوا الى ذلك سبيلاً .

ذكر السائح الفارسي انه التقى بامير عربي — لعله امير القبائل المنتفق — وهو زاحف على الاحسا وبعد ان حاصرها سنة كاملة استولى عـــلى حظيرة من حظائر المدينة الاربع واصاب غنائم كثيرة وانه لم يتمكن من الاستيلاء على الاحسا ولا تغلب عـــلى أهاليها ، فلما رآني اخذ يسألني عن مواقع النجوم ثم قال لي ان غرضي ان استولي على الاحسا لان اهلها كفرة لادين لهم فهل موفق في عملي .

نحن لا نعلم بماذا اجاب ناصر خسرو على سؤال الامير العربي الا اننا نرجح ان سعي الامير كان خائبا لان لدينا من الاخبار ما يستدل منـــه على ان جمهورية البحرين كانت لا تزال في اوائل الجيل السابع للهجرة حية مستقلة راقية يدير امورها مجلس منتخب من اهاليها بحسب النظام القديم الذي بقي جارياً في البـــلاد الى اوائل العصر الثالث عشر حين زارها السائح المغربي ابن بطوطة وحين لم يبق احد من سلالة ابي سعيد . اما ما كان من امر هذه الجمهورية بعد ابن بطوطة فلم يطلعنا عليه احد لا من كتبة العرب ولا من كتبة الفرس الذين هم اقرب الناس اليهم مذهباً وسكاناً الا انه يظهر من بعض اخبـار مبعثرة ان آثار النظام القرمطي بقيت ظاهرة في البحرين وعمان حتى اوائـل العصر الثامن عشر

ولعل بعضها لا يزال باقياً الى هـــذا اليوم ،فيا حبذا لو قام بيننا سائح كناصر خسرو او ابن بطوطة فزار تلك الجمهورية العربية وما يجاورها من البلاد التي تأثرت بنظامها وتعاليمها وبحث هناك عن تاريخها في الاعصر المظلمة ومـا حفظ من كتبها القديمة فيطلعنا على احوالها الحاضرة ، والا كان كل ما تعلمه اليوم عن هـذه البلاد بـل كل ما نعرفه عن سائر الفرق الاسماعيلية وعن حركتهم في الهند وافريقيا لا يشفي غليلاً ولا يدخل في باب العلم الصحيح . يظهر ممـــا تنشره احياناً جرائدنا ومجلاتنا عن الاسماعيلية ان عددهم لا يزال كبيراً في عمان ولا سيما في مدنها كمسقط والمطرحة وغيرهما وان مذهب الاسماعيلية انتقل مع المهاجرين من المدن المذكورة الى زنجبار وافريقيا الشرقية التي كانت قبـــل الحرب العظمى مستعمرة للالمان حيث ترى حركة فكرية ونشاطاً في نشر المبادىء القرمطية بين سكان البلاد الاصليين ، الا اننا نجهل لسوء الحظ نوع هذه الحركة وما تتضمنه من المبادىء القرمطية القديمة وهل لا يزال ذكر ابي سعيد وابي طاهر واحفادهما حياً بين اسماعيلية البحرين وعمان ومستعمرتها الافريقية . على اننا لا نشك في ان قرامطة هذا اليوم — لو فرضنا انه لا يزال منهم بقية — ليسوا بقرامطة امس الذين كان الناس يخشونهم في المدن والفلاة ويرتعد من ذكرهم خلفاء بغداد والقاهرة فما هم اليوم وقد فقدوا او نسوا اكثر مبادئهم الاجتماعية والسياسية واضاعوا نظامهم الاشتراكي . الا نحلة دينية سلمية جمدت وتحجرت منذ اجيال فلا تكاد تبدي حركة تدل على

حياة داخلية الا فيما ندر .

هذه هي اليوم حالة القرامطة في البحرين والهند والعجم وآسيا الوسطى وافريقيا وسوريا، لا يستثنى منهم الا فريق قليل كالدروز في سوريا والزيديين في اليمن الذين لا يزالون محافظين على حماستهم العربية القديمة وغزة نفوسهم وكرم اخلاقهم وان لم يحافظوا على جميع مبادىء الاسماعيلية الاجتماعية والفلسفية .



obeikandl.com

# الخاتمـــة

لا ريب في ان ظهور الاتراك والمغول على ساحـــة التاريخ وتغلغلهم في البلاد الاسلامية ابتداء من العصر التاسع الى اواسط الخامس عشر مع ما تبع ذلك من الحروب والاهوال والخسائر المادية والروحية التي لا تقدر ولا توصف ثم مجيء الصليبيين يبثون تعصبها الديني في الشرق العربي ويحاولون ان يستولوا على اجمل وارقى اراضيه وما وقع بـــين الفاطميين والقرامطة من الخلاف الناتج عن تباين في بعض مبادىء واغراض هاتـــين الفرقتين الكبيرتين من مذهب الاسماعيلية واختلافات اخرى وفقت بين القرامطة انفسهم الى غير ذلك من الاسباب الثانوية قد حالت دون تحقيق برنامج الصباغ تحقيقاً تاماً وخصوصاً تحقيق ماله علاقة بقسمه الاشتراكي ، على انه لا بد من الاقرار في ان قسماً كبيراً من ذلك البرنامج قد تحقق او صار مبدأ حيـــاة لكثير من الناس وان النجاح الذي اصابته دعوة الاسماعيلية بين الامم المؤلفة للخلافة العباسية على اختلاف قومياتهم وطبقاتهم كان ايضاً عظيماً حتى بالقيـاس الى دعوة الحزب الجمهوري الديموقراطي في الاسلام اي حزب الخوارج واني لا اظن ان دعوة او حركة عقلية اخرى

تركت في تاريخ الاسلام وعقول وحياة ابنائه من الآثار العميقة وكان لها من النتائج العملية مثل ما كان للحركة الاسماعيلية. من من المعلوم ان العالم الاسلامي وقسما من العوالم الاخرى ظلا يشعران بتأثير الافكار والانظمة الاسماعيلية سنين اعصراً عديدة كحزب او كتلة واحدة وما ذلك الا لان البذور التي بذرها اصحاب المذهب المذكور بين الامم الاسلامية خاصة والشرقية عامة كانت قوية ومملوءه حياة حتى ان حوافر خيل الترك المغول والصليبيين والاهوال التي رافقت هجرة هؤلاء الاقوام من آسيا الوسطى ومنغوليا واوربا الغربية لم تقو على قتلها. على اني لا اريد ان يفهم من كلامي ان كل ما زرعه الاسماعيلية نبت او انبت نباتاً حسناً وان كل ما نبت تغلب على محن الدهر وبقي الى يومنا هذا بل ان كثيراً منه نبت وان قسماً مما نبت بقي الى هذا اليوم مشوهاً محرفاً في تعاليم الفرق الاسماعيليه التي ذكرناها آنفاً وفي انظمة جماعات اخرى كاصحاب الحرف والاصناف والطرق الصوفية وغيرها من الهيئات المبنية على مبدأ التعاون المادي والعدل والمساواة الاجتماعية ووحدة المبادىء الاخلاقية. فقد اصبح اليوم من المقرر ان من اهم ميزات الاصناف والاخويات والطرق الصوفية والدرويشية التي يحق للشرق ان يفاخر بها لانه اول من مهد السبيل الى ظهورها هي فكرة التضامن بين الطبقات والدفاع عن حقوقها الاقتصادية والاجتماعية وذلك بجمع كلمة اعضائها وتكوين جماعات او حلقات منها موثقة العرى ومرتبطة بنظام واحد وغاية واحدة ووسائل واحدة. وغني عن البيان ان الاصناف في الشرق لم تكن هيئات او جماعات تربطهم وحدة

الحرفة والرغبة في تحسين احوال اعضائها المالية فقط كما هي الحال في اوروبا وبعض البلاد الشرقية في عهد الاتراك الذين نظراً لضعف عقولهم وضيق صدورهم وميلهم الى الاستبداد وحصر السلطة في يد واحدة ، منعوا الاصناف وسائر الجماعات التي ذكرناها من التدخل في السياسة والمسائل الاجتماعية واجبروها ان تقف عند غايات مادية فقط مع انها كانت قبل هذا الدور تعني ليس فقط بتحسين احوال اعضائها المادية بل كانت تعمل ايضاً على تقوية والغاء حقوقهم الاجتماعية واخلاقهم وعقولهم كما كانت الحال عند الاسماعيلية والقرامطة وانا لنعرف من الاصناف من لم يكن اصحابها يعنون بالمسائل المادية او كانوا يعنون بها قليلا وكان همها الاكبر نشر مبادئها بين الناس وتربية اعضائها تربية صالحة ادبية تتفق مع مبادئها الاساسية مما ينتج عنه ان الاصناف الشرقية كانت في اول ظهورها اقرب الى الجمعيات الخيرية الدينية منها الى نقابات العمال في عصرنا هذا وانها كانت تقوم باداء وظائفها المتنوعة تحت مراقبة رؤساء خبيرين منتخبين ذوي مراتب عالية يعرفون بالشيوخ والائمة .

والمعروف عن اعضاء هذه الجماعات انهم كانوا متساوين في الحقوق والواجبات يعاملون بعضهم بعضاً معاملة الأخ لاخيه ولهذا اطلق عليهم اسم ( الاخوان ) وهو الأسم الذي لا يزال مستعملاً حتى اليوم عند اكثر اصحاب الاصناف والطرق . بناء على ذلك وعلى شهادات بعض الكتبة المعاصرين نرجح ان اول حلقة او اخوية ظهرت بين القرامطة كانت حلقة « اخوان الصفا » التي تأسست في النصف الثاني من العصر العاشر كما يستفاد من بعض ( رسائلهم ) واقوال كتبة الأعصر المتأخرة .

# اخوان الصفا

اخوان الصفا جمعية او حلقة علمية سرية لم يشأ اعضاؤها ان يطلع الناس على اسمائهم واغراضهم ومحل اقامتهم ولهذا ترى كتبة العرب المتقدمين واكثر من بحث عن هذه الجمعية او ذكر شيئاً عن احوالها ومبادئها من علماء هذا العصر يخبطون فيها خبط عشواء ويظنون فيها الظنون على غير هدى ولا بصيرة الا أنه يظهر من بعض سطور من رسائلهم ومما نعرفه اليوم عن محل اقامتهم وزمن ظهورهم ونوع فاعليتهم او على الاقل فاعلية بعض اشخاص منهم ينسب اليهم الاشتراك في وضع الرسائل المذكورة — هذه الانسكلوبدية العلمية الاولى من نوعها. ان اخوان الصفا اول اخوية قرمطية اسست في البصرة لنشر المبادىء الاسماعيلية والسعي وراء تحقيقها بالطرق السلمية العقلية قال الاستاذ فون فون بوير ( P. Von Boer ) احد المشتغلين بالفلسفة الاسلامية ( إنما امام امر واقع نشؤ عصبة دينية اجتماعية ذات ميول متطرفة او بالاحرى ذات ميول ومبادىء اسماعيلية اما اعضاء هذه العصابة التي كانت البصرة من اهم مراكزها فقد اطلق عليهم اسم ( اخوان الصفا ) لأن غايتهم الكبرى كانت ان يعمل الناس على خلاص نفوسهم بالتعاون وسائر الوسائل وخاصة

« بالعلم المتظهر » وانا لا نعرف في الشرق الاسلامي عصابة اخرى كانت تعوّل على قوة العلم والحكمة في تمهيد سبل السعادة الانسانية في الحياة الدنيا مثلما كانت تعول عليها جمعية اخوان الصفا فان صح هذا الرأي ، وهو اقرب الآراء الى الصحة كان اخوان الصفا اول من قال بوجوب تسخير العلم والعمل لسعادة الانسان وهو ماقاله بعد مئات من السنين لاسال وماركس وما اصبح اليوم شعار حكومة روسيا حيث نجده مكتوب على جدران المدن وابواب البيوت اينما قلبت نظرك .

انا لنأسف انه ليس لدينا من المعلومات مانقدر معها ان ندرس حياة تلك الجماعة الداخلية والخارجية ونعرف اذا كان لها فروع في غير البصرة وما كانت علاقة هذه الفروع بامها وما هي اعمالها الى غير ذلك من المسائل التي يتشوق القارىء الى معرفتها على انا نستطيع بديهياً ان نفرض وجود هذه الفروع في عاصمة البلاد وبعض مدن ايران وآسيا الوسطى وسوريا ومصر وغيرها من البلاد التي انتشرت فيها مبادىء الاسماعيلية وكان لها فيها تأثير ظاهر وانا نرجح ان رد الفعل الذي اخذت تبدو ظواهره في النصف الثاني من العصر العاشر وتتهور القرامطة في البحرين ثم ما طرأ على خلافة بني العباس من الحوادث السياسية والمهمة في اوائل العصر الحادي عشر كان لها تأثيرها على « اخوان الصفا » وفاعليتهم وانه كان من نتائج هذا التأثير ان اصحاب السلطة المدنية والدينية اخذوا يضطهدون الاخوان ويقيمون عليهم العيون فاضطروهم الى التخفي والعمل تحت الارض او الى ايقاف عملهم او تغـــير نوعه وكذلك نرجح ان الخلايا

الاسماعيلية التي كانت منتشرة في البلاد اضطرت ايضاً تحت ضغط العوامل المذكورة ان تتجنب السياسة وتوقف حياتها على المسائل الاجتماعية والاقتصادية والادبية والدينية فقط فصار بعضها يشتغل بهذه المسائل وبعضها بتلك وانا نرجح حصول هذا التطور في حياة ( اخوان الصفا ) وخلاياها المتعددة استناداً على ما نعلمه من اعمال الجماعات التي خلفت حلقات (اخوان الصفا) وتأثرت بمبادئها نذكر منها الهيئات التي ظهرت في عهد الاتراك بين العرب والفرس والترك كالاصناف والاخوان وبعض الطرق الصوفية والدراويش كالنقشبندية والرفاعية وغيرهم ممن يمتون بنسب روحي الى اخوان الصفا او جماعات الاسماعيلية اما انه كانت بين الجماعات المذكورة صلة روحية فهذا امر يكاد يكون اليوم ملموساً ومتفقاً عليه عند العلماء .

قال المستشرق الروسي ( غورد لفسكي ) استاذ اللغة التركية في (مدوسة اللغات والعلوم الشرقية في موسكو ما تعريبه ( يستدل من اعمال ( اخوان آسيا الصغرى واعمالهم تكاد تنحصر في اكرام الضيوف والاعتناء بالسياح والغرباء . انهم غرباء الاصل او بعبارة اوضح انهم من اصل ايراني او كلمة (يا اخي ، او اخي )التي كانت شائعة بين اخوان الصفا والتشيع الظاهر لعلي بن ابي طالب اوللفتى ) كما كانوا يسمونه ولاولاده ثم نوع اعمال هؤلاء ونظامهم الداخلي والخارجي وامور اخرى لايسعنا ذكرها على الظن في ان هذه الجماعات وما هو جنسها وليدة جماعة القرامطة ووريثتها الشرعية ومعروف اليوم ان هذه الجماعات لا تزال حتى اليوم تحافظ في بعض المدن

الداخلية على شعائر دينية وعوائد غريبة لا نجدها عند غيرها من الاخوان الغربية او الشرقية وهو ما أشار اليه الكاتب الروسي المذكور بقوله ان الصنف التركي اقرب الى اخوية روحية ادبية مبنية على مبدأ الاعتراف بالرئاسة والرتب والطاعة للشيخ او الرئيس طاعة عمياء منه الى نقابات المحترفين .

ونحن لو امعنا النظر في هذا النظام لوجدناه يقرب جداً من نظام الدراويش الذين يعنون اكثر من « الأصناف » بالحياة الروحية النظرية وتربية السالكين في طرقهم تربية دينية ادبية وان كانوا احياناً يتدخلون في الامور السياسية كما كان يفعل اسلافهم الاسماعيلية ويدافعون عن حقوق الشعب المهضومة ويطالبون سلاطين آل عثمان باصلاحات اجتماعية .

ان من يقف على تاريخ الطرق الدرويشية كالمولوية والبلطاشية والنقشبندية ويطالع كتب شيخ الطريقة المولوية ويدقق في اعمال بعض اعضائها الاجتماعية لا بد ان يعثر هناك على نزعات شيعية متطرفة وروح ايرانية او روح اسماعيلية وهذا وبناء على ما ذكرناه قبلاً عن الاصناف والطرق الصوفية تراها غير بعيدين عن الحقيقة لو فرضنا ان كل هذه الجماعات على اختلاف اسمائها ونزعاتها وانظمتها الخارجية والداخلية ترجع في الحقيقة ومن جهة معلومة الى جماعة واحدة تولدت منها واخذت عنها اموراً كثيرة لا تزال تحافظ عليها ربما عن غير ادراك الى هذا اليوم واهم هذه الامور تلك الروح الاجتماعية التي كانت تجيش في صدور اشياع حسن الصباغ وتدفعهم الى اعمال عظيمة فالأصناف اذن وبعض الطرق الدرويشية التي

لا نزال نرى فيها نزوعاً الى التطرف في المبادىء والافكار هي ذاك الحمى الذي حفظت فيه الروح الاسماعيلية الثائرة العاملة وذاك الملجأ الذي كنا نسمع فيه احياناً اصواتاً عالية جريئة كانت تدعو اصحاب الاستبداد المطبق وسلاطين آل عثمان وبادشاهات وخانات العجم والترك الى ادخال الاصلاح اللازم للبلاد وتذكرهم بواجباتهم نحو شعوبهم المتألمة المهتضمة حقوقهم .

لولا ضيق المكان لأتيت على امثلة كثيرة من تاريخ الاصناف والطرق الصوفية والدرويشية تؤيد هذا الفكر الذي قد يظهر غريباً لبعض الناس الا اني اكتفي بمثلين فقط وهما ثورة الدراويش في تركيا سنة ١٤١٥ – ١٤١٨ وحركة البـــابيين او البهائيين في بلاد العجم .

من المعـــلوم عند اصحاب تاريخ آل عثمان ان زعيم الثورة المذكورة وهو الدرويش العالم بدر الدين سيماوي اوغلي جاء من بلاد العجم اي من عش الاسماعيليـــة الكبير ومصدر الحركات الاجتماعية والادبية من كل الشرق وهنـــاك تشرب المبادىء الاشتراكية المتطرفـة التي حاول هو وتلميذاه بركلجدجه مصطفى واليهودي المهتدي طورلاق كمال ان يبثوها بين سكان آسيا الصغرى الذين كانوا في ذلك الوقت اقرب الناس الى اتباعها والعمل بموجبها لما اصابهم قبيل ذلك من المحن والمصائب التي جرها على بلادهم الفاتح المغولي دميرلنك والحروب الاهليـة التي عقبت ذا الفتح وحولت اكثر البلاد الخصبة الى صحارى يهيم فيها من بقي من سكانها ولا مأوى لهم ولا طعام .

رأى بدر الدين واشياعه هـذه الحالة ثم رأى سلاطين وأمراء البلاد واصحاب الاملاك الواسعة فيها لا يهتمون الا بانفسهم وبجمع المال من الفقراء المعدمين ، فاحتج على ذلك في الجوامع والطرق فكان لكلامه وقع شديد على طبقات الفقراء والمظلومين فأخذوا يلتفون حوله ويؤيدون كلمته فلما رأى ذلك برز يدعو النـــاس جهاراً الى العدل والمساواة بين جميع الطبقات على اختلاف أديانها وقومياتها والى توزيع الاموال بين الناس على السواء فكان لدعوته هذه صدى قوي في البلاد حمل كثيرين من المستائين من الحـــالة الاقتصادية والاجتماعيـة في ذلك الوقت على الانضمام اليه وتأييده واصحابه بالقوة المسلحة فدارت بينهم وبين الحكومة حروب عديدة استغرقت نحو ثلاثة سنوات كان الحزب الاشتراكي يدافع فيها عن نفسه ومبادئه دفاع الابطال الى ان خارت قواه وفقد ما كان عنده من الذخائر فتقلبت عليه قرب مدينة ازمير جيوش السلطان محمد الاول وقبضت على احد زعمائه مصطفى بركلدجه وصلبته قرب مدينة مغنيزيا ثم تعقبت زعيم الحركة الاكبر ومصلي نارها بدرالدين سيماوي فقبضت عليه ايضـــا في جبال مكدونيا وقتلته وفتشت اصحابه وماتت الحركة ولم تبلغ غايتها .

اما الحركة البابية او البهـــائية المشبعة لما هو معلوم بالافكار الشيعية المتطرفة والمبادىء الاشتراكية فأمرها معلوم عند اكثر القراء لانها حديثة العهد ولان مجلاتنا وجرائدنا تنشر عنها حيناً بعد المقالات الضافية ولان زعيمهـا الاكبر وقسماً من اتباعه يقيمون بيننا في عكا وبعض مدن فلسطين وسوريا ومصر فلا حاجة اذن

الى الافاضة في اخبارها ويكفي القارىء ان يعرف ان الحركة المذكورة ظهرت ايضاً في بلاد العجم وبين الشيعيين المتطرفين حفظة روح الاسماعيلية القديم ونارهم المقدسة اذ من المحقق ان علي محمداً سنة ١٨٤١ — ١٨٥٠ المعروف « بالباب » كان من فرقة الاثنا عشرية وان كلمة ( باب ولغة بيانه ) واساليب تأويله وبعض افعاله وانظمته الرمزية ناهيك عن تعاليمه تقودنا تواً الى مذهب الاسماعيلية حيث ورد لاول مرة في الاسلام استعمال كلمة ( باب ) بمعناها الحاضر .

حاولت ان أبين في اول هذا الفصل ما كان للأفكار الاسماعيلية القرمطية من التأثير على نقابات المحترفين او الاصناف والجمعيات الخيرية وطرق الدراويش على انه لا يجوز ان يستنتج احد من كلامي هذا ان الهيئات المذكورة كانت دائماً مصدر الحركات الاجتماعية الحرة في الاسلام وان افكار ومبادىء حسن الصباغ واشياعه التي تسربت اليها بشتى الطرق كانت دائماً تتجلى في تعاليم وسيرة هذه الجماعات كلا ثم كلا .

لأننا نعرف ان زوايا كثيرة من زوايا الدراويش كانت مبعثاً للحركات الرجعية والتعصب الديني او القومي الاعمى وآلة لاستغلال عواطف جماهير الناس الدينية الطيبة ، وانا عنينا بعباراتنا السابقة بعض الطرق الصوفية لا كلها وعلى الاخص تلك الطرق التي نبتت في ارض ايران وتشربت منها الافكار الشيعية ، وكذلك بعض الحركات لا كلها او على الاقل ادواراً معلومة من حياة الهيئات والحركات المذكورة ، فكم من حركة ابتدأت باسم الله وبركته

وانتهت باسم الشيطان ، فهذه حركة ( باب ) وبهاء الله كانت في دورها الاول حركة مبـــاركة حرة يرجى منها خير للامة والبلاد الفارسية ، الا انها تحولت بعد وفاة مؤسسيها الى بدعة دينية او اخوية ادبية بسيطة ذات صبغة رجعية وبرنامج اجتماعي ضعيف ، فكنا بذكر كيف ان اصحابنا البهائيين الذين كانوا يؤيدون من سنة ١٩٠٥ الى سنة ١٩٠٩ حزب الاحرار وبرنامجهم السياسي القائل بوجوب اعطاء بلاد العجم دستوراً يقرب من دستور انكلترا ويشدون ازرهم اصبحوا عاجلاً من حزب الملكيين واخذوا يقاومون زعماء الشيعة الذين انضموا الى الاحرار وصاروا من قادة الحركة القومية الناقمة من الشاه وحكومته الرجعية .

كل ذلك لم يخف علينا كما لم يخف علينا ايضاً ان في تعاليم (باب) وبهاء الله ، عن التساهل الديني ووحدة الدين والعدل والمساواة بين الامم تناقضاً ظاهراً لم يهتد اصحاب المذهب المذكور وخلفاؤهم الى ازالته بكتبهم ورسائلهم العديدة التي تنشرونها حيناً بعد حين او يبعثون بها خطاً الى اشياعهم في الخارج او بمحادثاتهم الطويلة مع السيدات الاميركيات او الانكليزيات وغيرهن من الناس ثم لا حاجة بنا لان نذكر القارىء المطلع بما رقم في اول الحركة البابية من الخلاف بل من العداء بين بهاء الله واخيه ( صبحي ازل ) وانقسام البابيين الى فرقتين متعاديتين متطاحنتين كانت تسعى كل واحدة منها الى ابادة الاخرى بالسلاح والوشايات وسائر الوسائط المحرمة .

يقول البعض ان البهائيين يحرمون القتـل باسم الدين ولمسائل دينية الا ان الاستـاذ برون المعروف بعطفه عليهم ومساعداته لهم

يذكر في بعض تآليفه عنهم انه سمع من احدهم في شيراز ما يحرفه للنبي ( رئيس الجماعة » ان يتخلص من كل شخص يحسبه عدواً للدين ويرى فيه خطراً على الانسانية كما يعيد الطبيب العضو المصاب بداء معد ، زد الى ذلك ان البهائيين انفسهم يقرون بأنهم لن يحصلوا على السلطة المدنية في بلادهم الا بعد حروب دينيـــة تسيل فيها الدماء انهاراً قد يكون من وراءها تحسين احوال اليهـــود والمسيحيين ولكن لا للمسلمين ولا اصحاب « صبحي ازل ، والشيخين » الذين ولا شك ستسوء حالهم وربما يقضى عليهم .

كل هذا صحيح ، إلا انه لايقدح من صحة ما حاولنا ان نثبته من وجود صلة تاريخية او معنوية بين الاسماعيلية والبابيين ، لان عدد نقط التشابه بين هذين المذهبين كبير جـداً يصعب تعليله عن طريق الصدفة ، وفوق ذلك فانا لم اقل بمطابقة المبادىء الاسماعيلية وصورها الخارجيـــة مطابقة تامة لمبادىء الاصناف ودراويش البكطاشية والبابيين وغيرهم من الجماعات والهيئات القريبة منهم ، بل رجحت ان بعض الافكار والانظمة الاسماعيلية تسربت بطرق عديدة الى الوسط المذكور وان هذه الافكار ظلت كامنة الى ان توافرت الشروط الاقتصادية والسياسية فهبت من رقادها وخرجت من العالم الغير المدرك الى عالم الادراك فتحولت الى قوة محركة دافعة تجسمت في صور مختلفة .

نحن لانرتاب في صحة هذا الفكر كما انا لانرتاب اليوم في صحة فكر آخر وهو ان تأثير المبادىء الاسماعيلية الباطنية لم ينحصر في المجتمع الاسلامي والشرق على الاطلاق بل تعداه الى اوربا وبعض

الامم المسيحية ، وهناك ترك اثراً بيناً في حياة تلك الامم الفكرية وانظمتهم الاجتماعية ودساتير ادارتهم وجمعياتهم الى غير ذلك مما لا يسعنا الوقت الى التبسط فيه ، ولسنا مبالغين او بعيدين عن الحقيقة اذا قلنا انه كان للفرامطة تأثير تختلف درجاته على دستور الرهبنة اليسوعية مثلاً وبعض الصفات الرهبانية وعلى دستور الاصناف والفرسان الهيكليين والمالطيين وغيرهم فمن الادلة على ذلك ان الاصناف في اوروبا لم تكن في بادىء الامر نقابات للمحترفين قد انشئت للدفاع عن مصالح اعضائها المادية فقط بل نوعاً من الاخويات او الجمعيات الخيرية التي كانت غايتها تقوية المبادى الدينية والادبية الحسنة بينهم كما كانت الحال في الشرق فكان لكل نقابة ولي واحياناً هيكل في احد كنائس المدينة صندوق تجمع فيه اعانات الاعضاء لتوزع على المرضى والمحتاجين منهم عند الضرورة فكان اذا مات احدهم يشيعه رفقاءه الى القبر ويهتمون باولاده اضف الى ذلك انه كان للنقابة حق المراقبة على حياة اعضائها وسيرتهم وتعليمهم وتربيتهم الى غير ذلك من الواجبات التي نجد ذكرها في قوانين جماعات الدراويش وجميع الاصناف والهيئات الاسلامية .

لم تتغير صبغة هذه الهيئات وتصبح نقابات صرفة لا علاقة لها بالدين والأدب إلا رويداً كما وقع لأخواتها في الشرق وليس غرضنا الآن ان نبحث عن العوامل والمؤثرات التي أدت الى هذه النتيجة بل نحب ان نلفت نظر القارىء الى أمر آخر قد يكون له منه فائدة أعظم وهي الطرق التي دخلت بها المبادىء والانظمة القرمطية الى أوروبا واثرت على هيئاتها الاجتماعية

وأحدثت بينها حركات وانظمة متشابهة . فمن هذه الطرق الحروب الصليبية وما نتج عنها من التماس بين العالم الاسلامي والعالم الغربي المسيحي والتقرب بينهما على ما كان بينهما من العداوة . فلا شك ان بعض الغربيين الذين أقاموا مدة طويلة في الشرق وخصوصاً في سوريا وفلسطين كانوا عرفوا الحركة الاسماعيلية هناك فتأثروا بها وحملوا الى بلادهم معلومات كثيرة عنها وعن احدى فرقها المعروفة بفرقة الحشاشين وهناك أخذوا يطبقونها على حاجاتهم وأغراضهم فكان من ذلك ما ذكرناه من الهيئات الدينية والغير الدينية وكانت تلك الحركات الفكرية التي أدت الى دور التجدد في أيطاليا وما جاورها من البلاد ثم الى دور الاكتشافات والعلوم الحديثة . أضف الى هذا الطريق ذلك التيار الفكري والتأثيرات القوية التي كانت تتغلغل في أوروبا عن طريق اسبانيا وجنوب ايطاليا اللتان تقيمان تحت الحكم العربي وتأثير ثقافته وسننه الاجتماعية مئات من السنين ثم لا يجوز ان ننسى أو نتناسى ما كان بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي في الاجيال الوسطى من الصلات التجارية والسياسية والعمرانية وان هذه الصلات كانت أقوى وأكثر مما يتصوره بعض المؤرخين .

على كل حال لا ريب عندنا في ان افكار وسنن الشرق الاسلامي كانت تتسرب بطرق عديدة لا نزال نجهل اكثرها الى أوروبا وتؤثر على حياة شعوبها الاجتماعية والعقلية فربما كان من آثار ذلك ان الامة الجرمانية مثلا اخذت عنا في تلك الاجيال كلمة صنف أو اصناف فحولتها الى ( Sumft ) أما مايتعلق بتأثير آراء وانظمة

الاسماعيلية على نشوء وصبغة بعض جماعات رهبان اللاتين كاليسوعيين فهذا فكر قديم لا يزال بعض كتبة الغرب يحوم حوله ويرجع عليه حينا بعد حين وله انصار وله خصوم لا تزال الحرب بينهم سجالاً فمن أدلة انصار هذا الفكر على صحته ان لدساتير بعض الطغمات الرهبانية ولا سيما لدستور اليسوعيين مميزات وخواص فارقة كوجود عدة رتب أو منازل يرتقي اليها السالك في طريقه الى الكمال الادبي وحصر السلطة في يد رئيس مستبد والميل الاشتغال بالمسائل العلمية ثم الغرض البعيد من تأسيس الرهبنة المذكورة والطرق الشاذة التي يستعملها أصحابها للوصول الى غاياتهم الى غير ذلك من الصفات التي يختلف بها دستور هذه الاخوية عن دساتير غيرها من الاخويات المسيحية وبعكس ذلك يتفق مع دساتير الاخوان ) فحبذا لو أعتنى بهذه المسائل بعض علمائنا ممن اوقفوا حياتهم على الابحاث الشرقية أو بعض مستشرقي أوروبا فألقوا عليها نوراً جديداً وساعدوا على حلها حلا علمياً منزهاً عن الغرض .

يخال لي ان ما اثبت على ذكره من الحركات الاجتماعية والاشتراكية في الاسلام وهو قليل من كثير يكفي ان يقنع القارىء الغير المصاب بداء العناد ان الامم الشرقية على الاطلاق والعربية الاسلامية على التخصيص اجتازت في حياتها التاريخية الطويلة ذات المراحل الاجتماعية التي اجتازتها امم الغرب المسيحية فاذا صح هذا الفكر ، ولا نراه إلا صحيحاً كان لنا من ورائه اعتقاد قوي في ان شعبنا العربي لا بد ان يمر في المستقبل القريب

بذات الادوار الاجتماعيـة التي تمر بها الآن امم الغرب اخواننا في الانسانيـة . الذين سبقونا لحسن حظهم ولعوامل تاريخية وغيرهـا استناداً على ما نراه اليوم في الشرق من النهضة العمرانية وتنميـة الادراك الذاتي في ابنائه وان تكون قلبيه فانها تسير بسرعة لتتبوء مركزها بين شعوب الغرب التي سبقتها الى ذلك .



obeikandl.com

# فهرس


| | صفحة |
|---|---|
| اسس الاسلام الاقتصادية | ٣ |
| ظهور محمد (ص.ع.) | ١٣ |
| الحكومات العربية والأمم المغلوبة | ٢٦ |
| بابك وتعاليمه | ٤٦ |
| الحركات الاسماعيلية | ٧٥ |
| القرامطة وحركاتهم | ١٠٢ |
| الخاتمـــة | ١٤١ |
| اخوان الصفا | ١٤٤ |




obeikandl.com

obeikandl.com

سيصدر قريباً

كتاب

# الثائر

بقلم مصطفى الحاج

obeikandl.com